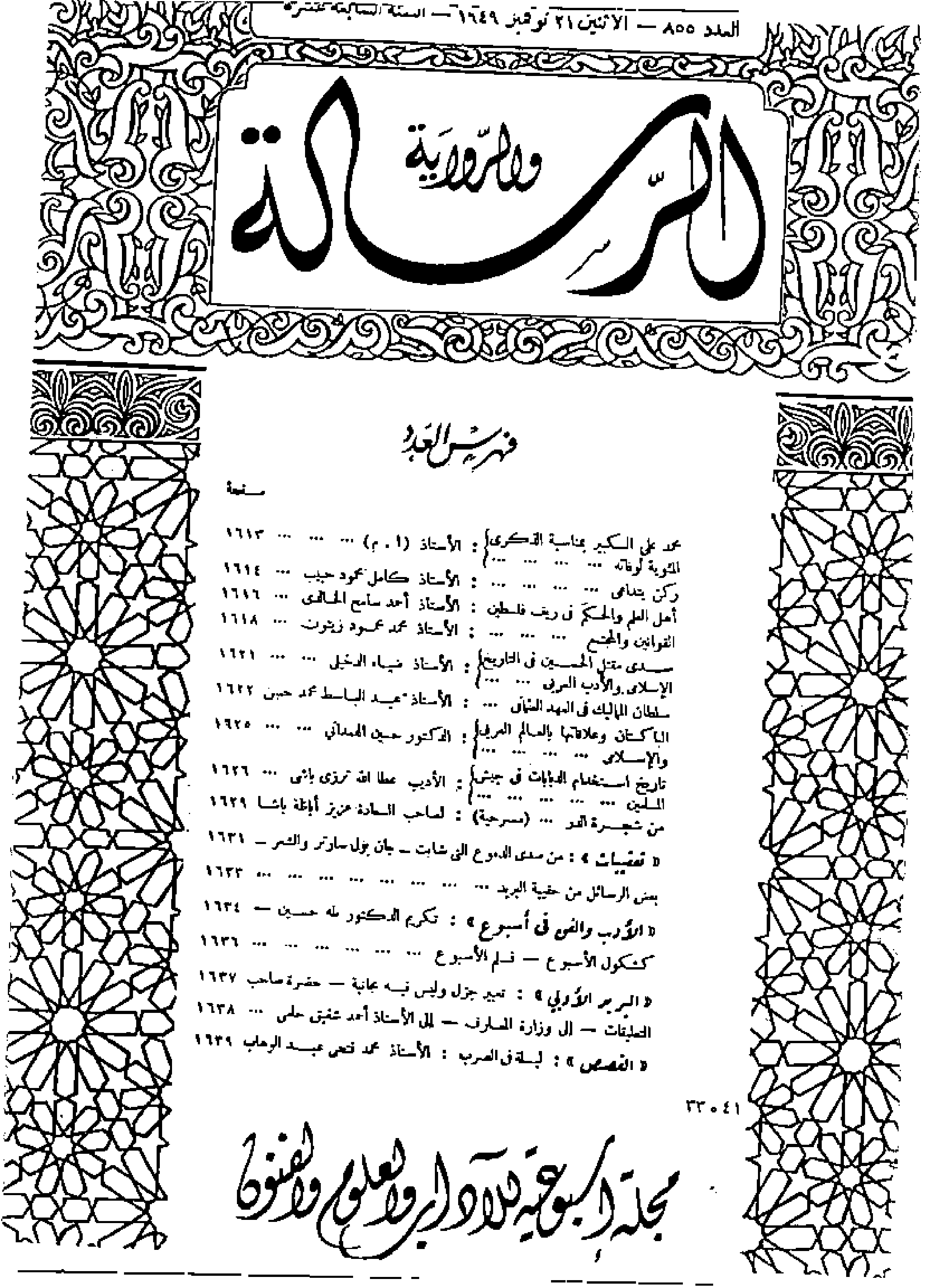


العدد ٨٥٥ — الاثنين ٢١ نوفمبر ١٩٤٩ — السنة السابعة عشرة

الرسالة والرواية

فهرس العدد

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

17 ème Année No. 855 — Lundi — 21 — 11 — 1949



العدد ٨٥٥ « القاهرة في يوم الاثنين ٣٠ من شهر المحرم سنة ١٣٦٩ — ٢١ نوفمبر سنة ١٩٤٩ » السنة السابعة عشرة

محمد علي الكبير

بمناسبة الذكرى المئوية لوفاته

كلما قلبت تاريخ هذا الرجل العظيم ثم أرسلت فكري وراء أخباره وآثاره ، بدا لي الرجل عالما من المزايا التي لا تخص بها الطبيعة غير الأفذاذ من الرجال ؛ ذلك لأن محمد علي لم يكن فرداً عاديا من هؤلاء الذين تخلقهم الظروف والمناسبات ، وتحل الحظوظ الطارئة في حياتهم محل المواهب النادرة والطموح الذي لا يحد ... كلا ، لم يكن محمد علي واحداً من هؤلاء ، ولكنه كان واحداً من أولئك الذين يفرضون أنفسهم على الظروف والمناسبات ثم لا يقيمون للحظوظ وزنا ما دام الوزن في حياتهم للبصيرة النافذة والعزم القادر والذكاء الوثاب لهذا كله سواء أسعف الحظ أم تخلف ، أقبلت الدنيا أم أدبرت ، ابتسمت الأيام أم لقيت جهادهم بالعبوس ! وهكذا محمد العظيم كلما بحثت عن أسباب العظمة في كل ميدان تقام فيه صروح الهمم وتشيد معاقل الكفاح ؛ شعلة من الإيمان بالنفس وشعلة من الإيمان بالوطن ... ومن وهج الشعلة الأولى تكونت شخصية محمد علي وغمر ضوؤها كل نفس ، ومن وهج الشعلة الثانية تكونت شخصية مصر الحديثة وامتد سلطانها إلى كل أرض ، وعلى مدار الشخصيتين العظيمتين اقترنت حياة رجل في حساب التاريخ بحياة أمة !

حين وفد محمد علي إلى مصر كانت مصر مرتعاً خصيباً للفوضى التي لا يرجى معها نظام ، وكانت ملجأ رحيباً للمفاسد التي لا ينتظر من جوره إصلاح ، وكانت حلماً جميلا للطامع الذي لا يؤمن لجشعه مغبة ، وكانت نهباً مباحاً للجهل الجاثم على العقول والتأخر المتخلف عن ركب الحضارة ... ونظر الرجل العظيم إلى الماضي البعيد بفكره فاستعبر ، وإلى الحاضر المشهود بعينه فأنكر ، ثم تطلع بطموحه إلى المستقبل المرتقب فامتلأت نفسه بالأمل والثقة والرجاء ! ماذا ينقص الأمم من وسائل الرقي لتأخذ مكانها في الطليعة ؟ وماذا يعوز الشعوب من أسباب التقدم لتشق طريقها إلى الأمام ؟. ورسم القائد العظيم خطته قبل أن يخوض أعظم معركة في ساحات المجد ؛ رسمها في صبر لا ينفد وأناة لا تيأس وجلد لا يلين . وكانت أعظم معركة وأشرف معركة .. مصدر العظمة فيها أنها انتزعت أمة من مهاوي العدم ، ومنبع الشرف فيها أنها انتشلت شعباً من ظلمات الجهل ، وانتصر الرجل في المعركة الخالدة بسلاحين : سلاح العلم والمرونة هنا وسلاح الجيش والأسطول هناك . وفي كل خطوة من خطواته فتوح تترى وغزوات !

لست في مجال الإحصاء للمفاخر والمآثر فتلك أمور يسأل عنها كتاب التراجم وكتاب التاريخ ، ولكنني في مجال التحية القلبية للعاهل العظيم بمناسبة انقضاء مائة عام على وفاته ، وإنها لذكرى تستحق البقاء في كل نفس من نفوس هذا الشعب الذي كافح محمد علي من أجل بقائه ، وكافح من بعده أبناؤه وأحفاده من أجل

خيره وسمته وسيادته ... اليوم ، وبعد تلك الأعوام المائة ننظر إلى البناء الذي أقناه بجهادنا على أرض القومية المصرية ، فلا يمكننا إلا أن نذكر واضع الأساس الأول في هذا البناء ، وغداً حين نواصل السير في الطريق الذي نتشوف إلى بلوغ منتهاه ، سنرتد بأفكارنا إلى الوراء نلتمس الهدى من تاريخ رجل هو قدوة السائرين في كل طريق .

لقد كان محمد علي مصريا بالطبع والسليقة وإن لم يكن مصريا بالمولد والنشأة . وأعظم بهذا المصري الذي شغلته مصر عن وطنه الأول وعن كل ما عداه من أوطان ، وأعظم بهذه المصرية التي لقي صاحبها العظيم في سبيلها من المحن ما لم يلقه إنسان !.

(أ . م)

صور من الحياة :

ركن يتداعى

للأستاذ كامل محمود حبيب

أتذكر أني – يا صاحبي – أنك كنت لي في ميعة الصبا رفيق الروح في وحدة الحياة ، وأنيس القلب في وحشة العمر ، ونور النفس في ظلام العيش !

لقد كنت إذ ذاك فتى مدقّ النشأة والمزق ، تختال في الصحة وترفل في العافية ، وتتألق على وجهك سمات النعمة وتبدو على جبينك علامات السعة ؛ لا تعوزك المتعة الرخيصة ولا تفتقر إلى اللذة التافهة . وأبوك صائغ ماهر يصوغ من الذهب الدرر والأطيان . والصائغ ماهر ينفث في العقد ليخلق لنفسه الثراء والغنى ؛ غير أنه مبتلى بالشح ، مرزأ بالكزازة ، يبرره الجزع من الإنفاق ، ويدهمه الخوف من البذل : طبيعة ركبت فيه لأنه يرى الكنز بين يديه وهو يتلألأ بريقاً يخطف البصر والقلب ، فيشفق أن تبدده نزعة الكرم أو أن يتلفه داء السخاء . وهكذا كان أبوك – يا صاحبي – صائغاً يصوغ الثروة ويضن بها على نفسه وعلى أولاده ، فما تبضّ يده بالقرش ولا ينبض قلبه بالشفقة . فأصابك بعض قسوته وبخله . وأحسست أنت بغلظة أبيك دون شحه ، لأن أمك كانت إلى جانبك ، فاعتراك تكسر وفتور من طول ما دعّك عن نفسه وعن مجلسه فنفرت من دارك وأهلك .

أما أنا فكنت فتى ريق الطبع قروي المزاج ، أسترسل في سذاجة وآخذ في قوة وأدفع في عنف ، وأنا إذ ذاك قريب عهد بالمدينة ، لم تغرني رجاحة المدنية ولا شاقتني طراوة الحضارة . أعيش وحيداً في حجرة وضيعة ، أحس الشظف والضياع ، لا أجد الرفيق ولا ألمس الراحة ، أتقلّب بين عناء الدرس وعنت الحياة فلا أتذلل ولا أضيق ، وأتنسم ريح القرية – بين الحين والحين – علّي أجد فيها بلاغاً ، وأنتظر هبّات عطف أبي – بين الفينة والفينة – عسى أن أنشق فيها عطر الشفقة . فتعلمت في وحدتي أول مبادئ الصبر والأنفة ، وتلقنت من فاقتي أول تعاليم الترفع والكبرياء .

واطمأن قلب إلى قلب ، وسكنت نفس إلى نفس ، فانطلقنا معاً – جنباً إلى جنب – نجتاز مراحل الدراسة في غير ونـاء ولا بطء ، صديقين عاشا في صفاء لم يعكره خصام ولا شابه تدابر ، وانطوت الأيام .

* * *

وتخرجت – يا صاحبي – في مدرستك لتصير موظفاً في وزارة الأشغال ، وانفلت من شح أبيك وقسوته لتنشق – لأول مرة – عبير الحرية والخلاص ، ثم اخترت لحياتك فأصبحت – بعد سنوات – زوجاً وأباً وربّ أسرة . أما أنا فقد طوحت بي الحياة في مطارحها ، لا أستقر في مكان إلا لأنزع عنه ، ولا أحط في بلد إلا لأطير عنه . فصرفتني شواغل العيش من أن أراك وأنا لا أنسى أنك كنت لي في ميعة الصبا رفيق الروح في وحدة الحياة ، وأنيس القلب في وحشة العمر ، ونور النفس في ظلام العيش .

ثم حنت نفسي إليك – بعد عمر من عمري – فانطلقت ، فرأيتك رجلاً تترقب قوة فقوة ، وتفيض بشراً وسروراً ، يلمع الأمل في ناظريك ويبسم الرضا من نضارتك ، وبين يديك صغار يرفون حواليك كالأقمار رونقاً وبهاء ، يملأون الدار جمالاً وسعادة ، ويغمرون قلبك بالغبطة والبهجة . أما زوجك فكانت روح الدار وريحانها .

وحين دخلت دارك ، أحسست أنك تسعد هناك بروح الجنة على ثرى الأرض ، وأنك تنعم بلذة الخلد في فناء الحياة ، وشعرت أنا بأن العزب رجل تاه عنه سحر بهاء الدنيا ورونق الأسرة .

ثم ضربت الأيام بيني وبينك — مرة ثانية — فوجدت فقدك في قرارة نفسي ولكن قلبي كان ينبض بالرضا والطمأنينة لأنه رأى دارك تموج بالسعادة والرفاهية .

وتناهى إلى — بعد سنة واحدة — أنك تطب لرض ألم بك فثاقت روحي إليك ، لعلى أستطيع أن أرفه عنك بلاء الداء . أو أزيح سفعات الألم . وحين وجدت السبيل إليك ، اندفعت أنت تحدثني حديثك ، فقلت : « . . . وذهبت أفتش عن دواء للواء عيني عند طبيب من ذوى الرأى والتجربة . ووجد الطبيب في ضعفاً فاستغله فهدم على يستنفد وفرى ويلتهم مالي . وطالت بي مدة العلاج ، وللطبيب أسلوب فيه الخديعة والأمل ، يستتر من ورائه أفانين من الجهل والجشع ، وأنا لا أجد معدى عن أن أستسلم في خضوع وأن أستخذى في ضعف . ثم ارتفعت عن عيني يد الطبيب ففزعت إذ أحسست بأن نور عيني يوشك أن ينطفىء فتظلم الحياة في ناظرى إلى الأبد ! ولكن الأمل كان يساودني آنا فآنا ، لأنني كنت أرى بصيصاً من نور يكشف لي الطريق ، فطرت — بعد لأى — إلى الطبيب أستجديه وأستمينه فوضع يده — مرة ثانية — ثم رفعها فإذا أنا أعمى قد كف بصرى

« آه ، ياصاحبي ! لقد انهار كياني وانهد عزمي وتداعى ركني وأصابتني البلوى في الصميم من قلبي ، وفي العزيز من روحي ، واعتورني اليأس والأسى ، وآذاني ما انتهيت إليه . فكنت أنطلق إلى حجرتي وحيداً أنخرط في بكاء مر طويل ، وأنا أشفق على أولادي أن تصفعهم النكبة فتخبوا فيهم جذوة الحياة ، وتخمد روح السعادة في الدار ، ويعصف بنا القل ويقتلنا الضيق وتذهب بعنا الفاقة ، فكتمت الأمر في قلبي وفي قلب زوجي .

« وثارت ثائرتي — ذات مرة — فانطلقت إلى الطبيب ، برفقة زوجي ، أريد أن أثأر لنفسي . وحين اندفعت إليه أحاول أن أنشب أظافرى في عنقه انفلت من بين يدى فارتطمت بالجدار فسقطت وأنا أصرخ في غيظ وكمد لأنني لم أشف غلة نفسي .

وانطوت الأيام وأنا أعالج لوعة نفسي بالصبر ، وأأسو جراح قلبي بالتأسي ، غير أنني كنت أفزع لكل نأمة وأجزع من كل صوت وأهرب من كل صديق . ووقفت مشاعري فلازمني الصمت والبكاء ... ثم عافت نفسي أن تنزل عن كبريائها ، وأنا من بيت دين وورع ، يترفع عن الاستخذاء في البلوى ويسمو على الضعف في الرزء ، فأمسكت على مضض وابتسمت على لوعة وأسلمت على بث .

« ثم وقفت بين فكين من الحياة فيهما الغلظة والجفوة ، فأنكرني رفاق في غير رحمة ، وفزع عني ذوو قرابتي في غير شفقة أما الحكومة فكانت الداء العياء والبلاء الأكبر ، فلقد طردتني من عمل لا أمل فيه ودعتني عن مكان لا أصبو إليه ، لم ترحم ضيقي ولا أشفقت على ضعفي ، فسلبتني راتبي ومنحتني حق ونبذتني إلى الشارع .

« وفي ذات مساء جاء ساعي البريد يعتذر بلسان سيده البك عن بعض ما سطرته يد السيد في خطاب الرفت .. ورآني الساعي في محنتي فانكب على يدى يقبلهما في عطف ، ويبللهما بدموع المحبة والإخلاص ... دموع الرقة والإنسانية ، فانهمرت عبراتي ، انهمرت لأنني ألفيت في الساعي كرما وشهامة على حين انطوى قلب سيده البك على ضعة وسفالة » .

وثارت شجون صاحبي فتاهت الكلمات على لسانه ... سكت وجبينه يرفض عرقاً لأنه يحاول أن يكتم نوازع نفسه هي وهي تضطرم في عنف وشدة ... على حين أني لم أنس أنه كان لي في ميعة الصبا رفيق الروح في وحدة الحياة ، وأنيس القلب في وحشة السمر ، ونور النفس في ظلام العيش .

وانتفض قلبي في حرقة وأسى ... انتفض لأنني رأيت صغاراً يرفون حوالينا كالأقمار رونقاً وبهاء ، فماذا ... ماذا تخبئ لهم الأقدار ، يا قلبي !

كامل محمود حبيب

أهل العلم والحكم

في ريف فلسطين

للأستاذ أحمد سامح الخالدي

يرى المتتبع لتاريخ فلسطين، أن الريف كان شاهداً لكثير من المعارك والحوادث الجسام. وقد ضمت تربته المقدسة رفات الكثيرين من الصحابة والتابعين الأكرمين.

وقد رأينا أن نسجل على صفحات مجلة الرسالة الغراء ما عثرنا عليه في المصادر العربية، مما يجهله الكثيرون.

ونرجو أن يتسع المجال لنشر ما توصلنا إليه. فيرى القراء الكرام، ما أخرجه هذا الريف من رجال العلم والحكم في مختلف العصور، وما تغنى به فحول الشعراء منذ القرن الهجري الأول حتى زوال الدولة العثمانية.

وقد شهد هذا الريف (أجنادين) و(طاعون عمواس) و(ومقتلة الايوبيين) عند نهر أبي فطرس (العوجا) و(حطين) التي هزم فيها الأفرنج، (وعين جالوت) التي قضى فيها على التتار، إلى غير ذلك من الحوادث والمعارك الفاصلة في التاريخ العربي.

على أن الريف قد حرك خيال الشعراء، فكان لشعر جرير والمتنبي، وليلى الأخيلية، وجميل، منه نصيب أي نصيب.

ونحن نسلم ونحن نكتب هذه السطور أن بعض الجهلة والمغرضين من الكتاب، والناصوم، قد شوهوا جمال هذا الريف، وقللوا من شأنه، كما نعلم أن أهله قد نسوه ونبذوه وأهملوه فأصبحت كلمة (فلاح) أو (قروى) مرادفة لكلمة جاهل أو محتقر، حتى صار أبناء الريف أنفسهم يشعرون أنهم من طينة غير طينة أبناء المدن المترفين. ونشأ مع هذا شعور بالضعة والذلة عند النشء القروى وطغى عليه، فصار إذا ما رأى طالباً نال شهادة الاجتياز إلى التعليم العالي رأى في ذلك أمراً عجباً؛ وإذا ما سمع باسم عالم ريفي يشغل مركزاً في القضاء أو الحكم استغرب وتعجب، كأنما العلم وقف على المدن والحواضر دون الريف، فكان من جراء هذا الشعور المغلوط أن تشبع أبناء المدن بشعور مبالغ فيه في تقدير قيمة المدن إذا قيست بالقرى؛ فكأنما العلم منشؤه المدن، وكأن الفلاح إنما هو أداة حراثة وحصاد يجد ويشقى لينعم بآثار جهده أبناء المدن وهم قاعدون.

على أن الذي يمعن النظر يرى أنه كان لأبناء الريف في فلسطين القدح المعلّى في شتى ميادين العلم والإدارة والقضاء في مختلف العصور. إذ كانوا منذ القرون الأولى ما يزالون حملة العلم لا في فلسطين فحسب بل نقلوا مشاعلهم معهم إلى ديار الشام ومصر وسائر البلدان العربية.

ونكتفي الآن أن نسجل بعض أسماء من أبناء الريف الفلسطيني فنذكر الحسن اليازورى رئيس وزراء الدولة الفاطمية (القرن الخامس) وقاضي قضاتها وداعي دعاتها وهو من أبناء يازور، قرية على طريق يافا.

بل لنعد قليلا إلى القرنين الأول والثاني الهجريين، فنذكر موسى بن نصير فاتح تبرس وقائد معاوية، وفاتح الأندلس فقد سبي والده من جبل الخليل وهو اللخمى الفلسطيني الريفي، ثم الربيع بن يونس أبو فروة حاجب المنصور العباسي باني بغداد ووزيره فهو من جبل الخليل أيضاً. وتعال إلى عالم الأدب فلا تنسى أن تذكر عبد الحميد الكاتب القيسراني، نسبة إلى قيسارية، وقد اعتبرها ياقوت قرية الوزير الأموى، الكاتب المنشئ، كما نذكر القاضي الفاضل البيساني نسبة إلى بيسان، المدينة الريفية الفلسطينية مستشار صلاح الدين، المؤرخ المنشئ البليغ والمصلح العمراني المجاهد الذي قال صلاح الدين عنه إنه لم يفتح البلاد إلا بقلمه.

بل لقد أخرج الريف الفلسطيني عدداً من الأسر العلمية التي ساهمت أكبر مساهمة في الحركة الفكرية في القرون الوسطى في فلسطين والشام ومصر، فمنهم بنو كنانة العسقلانيون، وقد تفرقوا بعد خراب عسقلان بعد القرن السادس فكان لهم فضل عظيم في نشر العلم والفقه واللغة. ومنهم بنو غانم القدسيون (من بورين) في جبل نابلس الذين أسلمهم صلاح الدين خانقاه في القدس فظل نجمهم يسطع حتى القرن العاشر. ومنهم بنو قدامة الجمّاعيليون، من جمّاعيل جبل نابلس، الذين نزحوا إلى دمشق في القرن السادس فأسسوا فيها الصالحية ومدرسة أبي عمر. فكانت

مركزاً هاماً لتدريس الفقه الحنبلى خاصة مما كان له أبلغ الأثر فى دمشق والشام والعالم الإسلامى عامة.

بل ماذا نقول فيما أخرجته (رامين) فى جبل نابلس مما سيطلع عليه القارئ فيما بعد، أو ما ساهمت به (مردا) من العلماء والعالمات حتى كادوا يحتكرون العلم فى تلك العصور الغابرة ويحملون مشعله دون سواهم.

هذا وقد أخرج الريف الفلسطينى عشرات بل مئات من المؤلفين والأدباء، فهذا الجمال البشيتى (نسبة إلى بشيت من أعمال الرملة) يكتب فى الألفاظ المعربة، وهذا المحبى صاحب سلك الدرر يقتبس من الحسن البورينى (نسبة إلى بورين جبل نابلس، ويعتبره مرجعه، ويعترف له بذلك فى مقدمة كتابه النفيس وهو أعظم مراجعنا عن الحركة الفكرية فى القرن الحادى عشر فى هذه الديار.

فى علوم القرآن، والفقه، ورواية الحديث، وفى التصوف والأصول والفرائض، وعلم الكلام والمذاهب الأربعة، وفى علوم اللغة، من قواعد ونثر ونظم، وفى إنشاء الرسائل، وفى التاريخ والطبقات والرحلات بل وفى علوم النجوم والرمل والزايرجا، فى جميع هذه العلوم التى تؤلف مادة العلوم الإسلامية منذ القرون الأولى ساهم أهل الريف فى فلسطين مساهمة تضعهم فى الصف الأول من خدمة الثقافة والعلوم فى هذه الديار.

وقد استثنينا من بحثنا المدن الفلسطينية الكبرى كالقدس، والرملة، وغزة والخليل، ونابلس ويافا وعكا وصفد، واعتبرنا أرسوف وقيسارية وعسقلان[1] من بلدان الريف لا المدن.

ولم نستثن الناصرة على اعتبار أنها كانت قرية من أعمال صفد، وحيفا لأنها كانت بليدة، وبيسان وهى أقرب إلى المدن الريفية منها إلى المدن والقصبات.

وقد رتبنا قرى الريف، على الحروف الأبجدية ليسهل الرجوع إليها، واعتمدنا معجم ياقوت كأساس للقرى العربية، كما أثبتنا غير ذلك من القرى مما ورد ذكره فى المصادر العربية الأخرى.

(١) فى السبكى ج ٢ — ص ٢ . سمع البخارى فى قيسارية وعسقلان فى أوائل القرن الثالث.

مشاهير فلسطين، وبقاعها، وأنهارها، وجبالها فى المصادر العربية:

أجناد الشام[1]: لما فتح العرب الشام قسموها إلى خمسة أجناد وهى جمع جُند ومنها جند فلسطين وجند الأردن وجند دمشق وجند حمص وجند قنسرّين. قال ابن جابر اختلفوا فى الأخبار فقيل سمّى المسلمون فلسطين جنداً لأنه جمع كوراً، والتجند التجمّع، وجندت جنداً أى جمعت جمعاً، وكذلك بقية الأجناد. وقيل سميت كل ناحية بجند لأنهم كانوا يقبضون أعطياتهم فيه. قال الفرزدق:

فقلت ما هو إلا الشام تركبُه ... كأنما الموت فى أجناده البغرُ

وجاء فى معجم ياقوت ج ٦ — ٣٩٧ عن فلسطين ما يأتى:

«العرب فى إعرابها على مذهبين: منهم من يقول فلسطين ويجعلها بمنزلة مالا ينصرف ويلزمها الياء فى كل حال فيقول هذه فلسطينُ ورأيت فلسطينَ ومررت بفلسطين. ومنهم من يجعلها بمنزلة الجمع ويجعل إعرابها بالحرف الذى قبل النون فيقول هذه فلسطون ورأيت فلسطين ومررت بفلسطينَ. كذا ضبطه الأزهرى والنسبة إليه فلسطىّ. قال الأعشى:

ومثلك خَوْدٌ بادن قد طلبتها ... وساعيت معصياً لدنيا وُشاتها

متى تُسق من أنيابها بعد هجعة ... من الليل شرباً حين مالت طلاتها

تخله فلسطياً إذا ذقت طعمه ... على ربذات النىّ حمشٌ لثاتُها

وهى آخر كور الشام من ناحية مصر قصبتها بيت المقدس، ومن مشهور مدنها عسقلان والرملة وغزة وأرسوف وقيسارية ونابلس وأريحا وعمان ويافا وبيت جبرين[2] أولها رفح من ناحية مصر وآخرها اللجون (مجدو — أو تل المتسلم) من ناحية الغور عرضها من يافا[3] إلى أريحا نحو ثلاثة أيام، وزغر (بحيرة لوط

(١) معجم البلدان ج ١ — ١٢٥

(٢) عاد ياقوت فاعتبر بيت جبرين (بلداً بين بيت المقدس وغزة) كما قال عن قيسارية (أنها فى زمانه أشبه بالقرى منها بالمدن) وأما عن أريحا فقال تحت كلمة الغور، (ومن قراه أريحا).

(٣) يكتبها ياقوت أحياناً بالهاء (يافه).

بين ابن خلدون ومنتسكيو :

القوانين والمجتمع

للأستاذ محمد محمود زيتون

عاش ابن خلدون المغربي المسلم في القرن الرابع عشر ، وتأمل التاريخ فوضع موسوعته الخالدة «المقدمة» ، وهي أول بحث علمي منظم في الاجتماع ، وبعده بأربعة قرون جاء منتسكيو الفرنسي المسيحي بكتابه «روح القوانين» Esprit des lois استغرق في وضعه عشرين عاما قضاها في دراسات واسعة في المجتمعات وظروفها السياسية والاجتماعية والدينية التي تحدد قوانينها .

عنى ابن خلدون بالاجتماع الانساني وما يلحقه من العوارض والأحوال كما اهتم منتسكيو بالمناخ والدين والقوانين والنظم الحكومية والتقاليد والعادات وأحوال المعيشة ، وكلها أمور تتحكم في المجتمع وتؤلف «الروح العامة» Esprit général وهي ما يحدد خصائص الأمة ، ويميز شخصيتها عن سائر الأمم . وبمقتضى هذه الروح العامة يجب أن تسن القوانين «ويجب أن تكون القوانين ملائمة للشعب الذي من أجله سُنت بحيث إذا لاءمت شعبا آخر غيره كان ارتباك عظيم . . . ويجب أن تكون متمشية مع طبيعة البلاد ومناخه . . . ومع طبيعة أرضه وموقعه واتساعه ، ومع نوع المعيشة التي يحياها الشعب من زراعة أو صيد أو رعي ، ويجب أن تتفق أيضا مع مقدار الحرية التي كفلها الدستور ، ومع ديانة السكان وميولهم وثروتهم وتعدادهم وتجارتهم وعاداتهم وأحوالهم العامة . . . في كل هذه النواحي يجب أن نعالج القوانين» .

وينشأ الاجتماع الانساني — في رأى ابن خلدون — عن الإحساس بالضعف من جانب الفرد في الحصول على الغذاء والسلاح ، وعن الظلم والعدوان مما لا يزال عالقا بالنوع الإنساني . أما منتسكيو فيرى أن ما يقرب بين الحيوان وأفراد جنسه إنما هي بوادر الخوف المشترك ، وكذلك الإنسان .

ولقد أراد «دوركيم» زعيم المدرسة الاجتماعية الفرنسية

أو البحر الميت) ديار لوط وجبال الشراة إلى آيلة (العقبة) كله مضموم إلى جند فلسطين ، وغير ذلك وأكثرها جبال والسهل فيها قليل(١) .

ولو أن طيرا كانت مثل سيره ... إلى واسط من إيلياء(٢) لكلات
سما بالمهاري من فلسطين بعد ما ... دنا الشمس من في إليها فوات

قال البستي ، وكان ورد بغداد رسولا من غزة يذكر فلسطين والتزم ما لا يلزمه من الطاء والياء والنون يمدح عميد الرؤساء أبا طاهر محمد بن أيوب وزير القادر بالله ثم القائم :

العبـــد خادم مولانا وكاتبه ... ملك الملوك وسلطان السلاطين
قد قال فيك وزير الملك قافية ... تطوي البلاد إلى أقصى فلسطين
كالسحر يخلب من يرعيه مسمعه ... لكنه ليس من سحر الشياطين

(١) يلاحظ أن جند فلسطين كان يحدها من الشمال اللجون ومرج بن عامر ، ويدخل فيه وادي العربة وجبال الشراة في شرق الأردن الآن والبلقاء . أما الغور والقسم الشمالي من فلسطين الآن بما في ذلك حيفا وعكا وصور فقد كانت تابعة لجند الأردن .

(٢) الإسم الذي أطلقه الرومان على القدس وهو إيليا كابيتولينا .

فأرعه سمعك الميمون طائره ... لازال حليك حلى الكتب والطين
وعشت أطول ما تختار من أمد ... في ظل عز وتوطيد وتوطين

وقال ابن عرمة :

كأن فاها ابن تؤنســـه ... بعد هبوب الرقاد والسّنا
كأس فلسطية معتقـــة ... شيبت بماء من مزنة النــل

قال ابن الكلبي في قوله تعالى (ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم) هي أرض فلسطين . وفي قوله تعالى . (الأرض التي باركنا فيها للعالمين) قال هي فلسطين .

قال عدى بن الرقاع :

فكأني من ذكركم خالطتني ... من فلسطين جلس خمر عقار
عتقت في الدنان من بيت راس(١) ... سنوات وما سبتها التجار
فهي صهباء تترك المرء أعشى ... في بياض العينين منها احمرار

(١) هي إحدى المدن العشرة الاغريقية المدونة بالديكابولس Decapolis

أحمد سالم الخالدي

للكلام بقية

الحديثة أن يصبغ جهوده فى الاجتماع بالصبغة العلمية فميز فى هذا العلم ناحيتيه « الاستقرارية Statique والانتقالية Dynamique كما هو معروف فى العلوم البحتة كالميكانيكا والكهربائية وغيرها »

فطن ابن خلدون إلى هذا قبل « دوركيم » إذ يرى أن المجتمع ينتقل من البداوة إلى الحضارة ، وهما حالتان طبيعيتان تعرضان له حتى توفرت الظروف . ويحدث هذا التطور تبعاً لنوع المعاش وانتقاله ومن البسيط إلى المركب ، من الضرورى إلى الكمالى ، ومن البداوة إلى الحضارة : فأهل البدو على الفطرة الأولى ، وهم أقرب إلى الخير من أهل الحضر ، ونظراً « لتفردهم عن المجتمع ، وتوحشهم فى الضواحى ، وبعدهم عن الحامية ، وانتباذهم عن الأسوار والأبواب ، قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها إلى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم » فهم لذلك أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر .

ومن مظاهر البداوة : « العصبية » التى تكون بالالتحام بالنسب بين القبائل و« سكنى البدو لا يكون إلا للقبائل أهل العصبية » التى بها « تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم » وتكون الرياسة لمن كان « أعرق فى البداوة وأكثر توحشاً » والرياسة فى نظر ابن خلدون سؤدد ، وإذا انقلب السؤدد إلى الحكم بالقهر والغلبة انتقلت الرياسة إلى الملك وطرأت على المجتمع عوارض الترف والنعيم والانقياد ، ويعرض له التنافس فى معالى الأمور كما تتوره الوحشية وبكل ذلك يكون المجتمع فى صميم طور الحضارة لأن المعاش كان ضرورياً فصار كمالياً ، ولأن « الحضارة إنما هى تفنن فى الترف وإحكام الصنائع » . والملك يتسع إذا كان أساسه الدين أولا .

هذا هو المجتمع الديناميكى عند ابن خلدون . أما منتسكيو فيستنتج قوانين طبيعية أولى هى أسباب التطور فى المجتمع ، منها السلم الناشئ عن شعور الفرد بضعفه إزاء المتوحشين فيشعر « بالدونية » ولا يشعر بالمساواة ، ولا يرغب فى المهاجمة فيسالم ، ويتلو الشعور بالسلم الشعور بالحاجة ثم الشعور بالفرحة المشتركة .

ومن أهم العوامل الفعالة فى المجتمع الإنسانى « الدين » لماله من أثر فى الأخلاق والتربية ، وكذلك فى السياسة والملك . ويفضل ابن خلدون الأحكام الشرعية على الأحكام التعليمية لأن الأولى يكون الوازع فيها هو الضمير لا المخافة والانقياد كما هو الشأن فى الأخرى . لهذا يعتبر التعاليم الشرعية هى أصول التربية والأخلاق ، وكل ما عداها مفسد ضار ، « فقد تبين أن الأحكام السلطانية والتعليمية مفسدة للبأس ، لأن الوازع فيها أجنبى ، وأما الشرعية فغير مفسدة لأن الوازع فيها ذاتى » .

وللدين الأثر القوى فى الدول العامة الاستيلاء ، العظيمة الملك ، « لأن الملك إنما يحصل بالتغلب ، والتغلب إنما يكون بالعصبية ، واتفاق الأهواء على المطالبة ، وجمع القلوب ، وتأليفها ، إنما يكون بمعونة من الله فى إقامة دينه ... وسره أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل ، حصل التنافس ، وفشا الخلاف ، وإذا انصرفت إلى الحق ، اتحدت وجهتها فذهب التنافس ، وقل الخلاف ، وحسن التعاون ، والتعاضد ، واتسع نطاق الكلمة للملك فعظمت الدولة » . والدعوة الدينية فى نظره تزيد الدولة فى أصلها قوة على قوة العصبية ، والإمام خليفة عن صاحب الشرع .

أما منتسكيو — مع سعة إحاطته بالدين القارن — فإنه ينظر إلى الدين من حيث صلاحيته للدولة « فسوف لا أعالج مختلف أديان العالم إلا من حيث علاقتها بالخير الذى تحققه للدولة » . ويقول « إن الأمير الذى يحب الدين ويخشاه إنما هو أسد يذعن لليد التى تدلله ، أو الصوت الذى يناغيه ، والأمير الذى يخشى الدين ويبغضه إنما هو الوحش الضارى الذى يعض السلسلة التى تمنعه من التهجم على المارة ، وأما ذلك الذى لا دين له أصلا فهو ذلك الحيوان المرعب الذى لا يشعر بحريته إلا عند ما يتهجم ويفترس » .

لهذا أخذ منتسكيو يعرض على كل حكومة ما يناسبها من الأديان والمذاهب حسب اعتدال هذه الحكومة أو استبدادها « لأن الدين يتبع عادة لون الحكومة » ولأن الدين خير ضامن للناس إخلاص الناس ، فإذا وجب ألا يتعارض الدين مع القوانين فقد وجب كذلك ألا يتعارض مع الأخلاق .

يفترض ابن خلدون القوانين قبل الملك وبعده مما يوجب السياسة الدينية التى يقررها الشرع ، أما السياسة العقلية التى يفرضها العقلاء فإنها لا ترقى إلى غاية الأحكام الشرعية . « فالسياسة والملك هى كفالة للخلق ، وخلافة لله فى العباد لتنفيذ أحكامه

بهم ، وأحكام الله في خلقه وعباده إنما هي بالخير ومراعاة المصالح كما تشهد به الشرائع ، وأحكام البشر إنما هي من الجهل والشيطان» .

وأنواع الملك ثلاثة : الملك الطبيعي ، والملك السياسي ، والخلافة . فالأول حمل الكافة على الغرض والشهوة ، والثاني حملهم على النظر في جلب النفع الدنيوي ، ودفع الضرر ، والأخير هو حملهم على الشرع دنيا وأخرى ، وهي خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا .

وإذ تتكون الدولة على هذا النحو ، يستقصي ابن خلدون أطوارها الخمسة فيما يلي : — الظفر والاستبداد والترف والمسالمة والإسراف : ويرى أيضاً أن المال والجند هما العاملان الرئيسيان في إقامة دعائم الملك إذا وجدا ، وتقويضها إذا فقدا .

ويستطرد من البحث في الخلافة التي هي الملك الصحيح أو الدولة المثالية إلى البحث في ماهيتها وشروطها وخططها التي في مقدمتها الصلاة ، ثم تطورها وانتقالها إلى الملك ، ولا ينسى الحروب وأسبابها التي لا تعدو أن تكون من هذه الأربعة : — غيرة ومنافسة ، عدوان ، غضب لله ولدينه ، غضب للملك . والنوعان الأولان حروب بغي وفتنة ، والآخران حروب جهاد وعدل .

والعادات تتأثر بالسياسة ، فالناس على دين الملك ، وعوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه ، والمغلوب يقلد الغالب ، وتعاقب الأمم والأجيال في الملك يؤدي إلى المخالفة في العادات بالمراد . والفضيلة دعامة قوية لقيام الدولة ، والعدل أساس الملك ، والظلم فساد للدولة وإفساد للرعية .

وعند منتسكيو أن القوانين علاقات rapports ضرورية تنجم عن طبائع الأشياء ، والوضعية منها أو السياسية التي تواضع عليها العقل الإنساني ما هي إلا حالات يتجلى فيها العقل ، وهذه القوانين دولية وتشريعية ومدنية : الأولى تتعلق عما بين الدول من علاقات ، فهي القانون الدولي العام ، والثانية تتعلق بما بين السلطات التي تنظم الدولة من جهة ، وعما بينها وبين الدولة من جهة أخرى ، والأخيرة تتعلق بتنظيم العلاقات بين الأفراد . ثم يتحدث عن العلاقة بين القوانين الوضعية وبين شكل الحكومة ، والأسس التي يقوم عليها الحكم والبيئة الجغرافية والاقتصاد وكل هاتيك العناصر التي تسمى « الروح العامة » .

والحكومات عنده أربع : الجمهورية وهي إما ديمقراطية أو ارستقراطية ، والملكية ، والمستبدة ، ولكل حكومة فضيلة تخصها ، فالديمقراطية فضيلتها حب الوطن أو حب المساواة ، والأرستقراطية فضيلتها الاعتدال ، والملكية فضيلتها الشرف ، والاستبدادية صفتها السياسية الخوف ، فهي إذن فضائل سياسية لا تمت بصلة إلى الدين أو الأخلاق .

ويقول ابن خلدون «إن الملك إذا كان قاهراً باطشاً بالعقوبات منقباً عن عورات الناس ، وتعديد ذنوبهم ، شملهم الخوف والذل ولاذوا منه بالخديعة والمكر والكذب ، فتخلقوا بها وفسدت بصائرهم وأخلاقهم ، وربما خذلوه في مواطن الحرب ... »

وللإصلاح الاجتماعي حدود في منتسكيو إذ يقول « إذا أراد أمير أن يغير من أحوال شعبه فعليه أن يصلح بالقوانين ما هو مؤسس بالقوانين ، وأن يغير بالعادات ما هو مؤسس بالعادات ، وإنها لسياسة عمياء أن يغير بالقوانين ما يجب تغييره بالعادات» .

أما ابن خلدون فإنه ينشد الإصلاح الاجتماعي الذي غايته الاقتداء « إذ هو — أي التاريخ — يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم ، والأنبياء في سيرهم ، والملوك في دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا » .

فالظواهر الاجتماعية والعوامل الطبيعية ذات علائق بالقوانين المشتقة من الروح العامة التي تنتج من تفاعل هذه العوامل ، وتلك الظواهر في كل مجتمع على حدة .

ومن هذا العرض الموجز يرى القارئ مدى الائتلاف والاختلاف بين ابن خلدون رائد التاريخ ، وبين منتسكيو رائد السياسة وكيف التقيا في ميدان الاجتماع .

محمود محمود زيتون

صدى مقتل الحسين

في التاريخ الإسلامي والأدب العربي

للأستاذ ضياء الدخيلي

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

ولما كان يوم عاشوراء من سنة ٥١٦ هـ جلس الخليفة الآمر بأحكام الله على باب (الباذهنج) في القصر وكان ذلك بعد قتل الأفضل وعود الأسمطة إلى القصر — على كرسي جريد بغير غدة متلثما هو وجميع حاشيته، فسلم عليه الوزير المأمون وجميع الأمراء الكبار والصغار بالقراميز (ويقول البعض هي على ما يظهر ثياب خاصة ملونة بالقرمز) وإذن للقاضي والداعي والإشراف والأمراء بالسلام عليه وهم بغير مناديل ملثمون حفاة، وعبىء السماط في غير موضعه المعتاد وجميع ما عليه خبز الشعير والحوامض على ما كان في الأيام الأفضلية وتقدم إلى والي مصر والقاهرة بأن لا يمكنا أحداً من جمع ولا قراءة مصرع الحسين وخرج الرسم المطلق للمتصدرين والقراء والوعاظ والشعراء وغيرهم على ما جرت به عادتهم.

قال وفي ليلة عاشوراء من سنة ٥٢٧ اعتمد الأجل الوزير المأمون على السنة الأفضلية من المضي إلى تربة (تبر) أمير الجيوش وحضور جميع المتصدرين والوعاظ وقراء القرآن والمكث إلى آخر الليل والعودة إلى داره، واعتمد في صبيحة الليلة المذكورة مثل ذلك وجلس الخليفة على الأرض متلثما يرى به الحزن وحضر في شرف بالسلام عليه والجلوس على السماط بما جرت به العادة.

هذا ما كان يحدث من احتفالات في ذكرى مصرع سيدنا الحسين (ع) قبل أن يشاد الضريح الحسيني حيث دفن فيه رأس الإمام الشهيد منقولا من عسقلان. أما بعد ذلك فقد تحدث ابن الطوير عما كان يصنع في عاشوراء فقال: إذا كان اليوم العاشر من المحرم احتجب الخليفة من الناس، فإذا علا النهار ركب قاضي القضاة والشهود وقد غيروا زيهم ليكونوا كما هم عليه اليوم (في عهد الناقل ابن الطوير) ثم صاروا إلى المشهد الحسيني وكان قبل ذلك يعمل في الجامع الأزهر، فإذا جلسوا فيه ومن معهم من قراء الحضرة والمتصدرين في الجوامع جاء الوزير فجلس صدراً والقاضي والداعي على جانبيه والقراء يقرءون نوبة بنوبة وينشد قوم من الشعراء غير شعراء الخليفة شعراً يرثون به أهل البيت عليهم السلام؛ فإن كانوا لوزير رافضاً تغالوا، وإن كان سنياً اقتصدوا.

ولا يزالون كذلك إلى أن تمضي ثلاث ساعات فيستدعون إلى القصر بنقباء الرسائل فيركب الوزير وهو بمنديل صغير إلى داره ويدخل قاضي القضاة والداعي ومن معهما إلى باب الذهب فيجدون الدهاليز قد فرشت مصاطبها بالحصر بدل البسط وينصب في الأماكن الخالية من المصاطب دكك لتلحق بالمصاطب لتفرش، ويجدون صاحب الباب جالساً هناك فيجلس القاضي والداعي إلى جانبه والناس على اختلاف طبقاتهم فيقرأ القراء وينشد المنشدون أيضاً ثم يفرش عليها سماط الحزن وفيه مقدار ألف زبدية من العدس والملوحات والمخللات والأجبان والألبان الساذجة وأعسال النحل والفطير المتغير لونه بالقصد فإذا قرب الظهر وقف صاحب الباب وصاحب المائدة وأدخل الناس للأكل منه فيدخل القاضي والداعي ويجلس صاحب الباب نيابة عن الوزير والمذكوران إلى جانبه وفي الناس من لا يدخل ولا يلزم أحد بذلك فإذا فرغ القوم انفصلوا إلى أماكنهم ركباناً بذلك الزي الذي ظهروا فيه وطاف النواح بالقاهرة ذلك اليوم وأغلق البياعون حوانيتهم إلى جواز العصر فيفتح الناس بعد ذلك ويتصرفون. أما الدولة الأيوبية فقد اتخذت يوم عاشوراء عيداً ومن أيام الأفراح لإرغام آناف الشيعة وإيلامهم.

هذا هو أثر فاجعة كربلاء في التاريخ الإسلامي.

أما في الأدب العربي فقد أوجدت فيه ناحية قائمة يعلو فيها الصراخ والعويل وتتردد في جوانبها الثورة على الظلم القبيح واستدماج الإباء وشرف النفس والمنع من دنايا الأمور. كان هذا القسم من الأدب العربي طافحاً بتصوير مآسي كربلاء بخطوط واضحة سوداء واجتهد في أن يبرز كل جانب من جوانبها مؤلماً يهطل بالدموع ويثير الآهات والحسرات خاصة بعد أن كان ترديد فاجعة كربلاء على الجماهير مهنة تدر الربح الوفير كما كان حال النواح والمنشدين في العصر الفاطمي بمصر كما تقدم على ما نقل المقريزي في الخطط وكما هو الشأن اليوم في العراق وإيران والهند وجبل عامل وغيرها من الأصقاع الشيعية، ويدعى هؤلاء (خطباء المنبر الحسيني) ويسمون في اللغة الفارسية (روزه خون) وهي تحريف (روضه خون) أي قارئ الروضه أي روضة الإمام الشهيد يعني قبره الكريم.

سلطان المماليك

في العهد العثماني

للأستاذ عبد الباسط محمد حسن

كثيراً ما يتساءل المؤرخون والباحثون : لماذا لم يتخلص السلطان سليم العثماني من البقية الباقية من المماليك بعد أن تم له فتح مصر في سنة ١٥١٧ م ؟ ولماذا لم يمض عليهم قضاء نهائياً حتى يستريح منهم ومن أحقادهم .. ويخلص البلاد من شرورهم وآثامهم ؟

أكان ذلك ناجماً عن ضعف الدولة العثمانية .. وعجزها عن القضاء عليهم .. أم كان ذلك .. وفقاً لخطة موضوعة .. وسياسة مرسومة ؟

الواقع أن السلطان سليماً ، كان رجلا حربيا وإداريا من الطراز الممتاز .. بحيث أننا لا نستطيع أن نقول إنه أخطأ في عمله هذا .. خصوصاً وأنه لم يرتجل سياسته التي سار عليها في حكم البلاد .. بل أنه فكر فيها كثيراً قبل أن يضعها .. وبقي في مصر .. فترة من الزمن بعد انتصاره على قوات المماليك ، للتعرف على نظام الحكم فيها ، ولوضع سياسة ثابتة ، تضمن بقاء مصر تابعة له وللدولة العثمانية .. ولو كان السلطان يرى في وجود المماليك بمصر خطراً يهدده .. لتخلص منهم ولأنتقم من آخرهم ..

لقد رأى السلطان ببعد نظره وثاقب فكره أن .. بعد مصر عن مقر الحكم في الآستانة .. قد يساعد حكامها وولاتها على الاستقلال عن الباب العالي ، فقضى بتوزيع السلطة بين عدة عناصر : فالباشا ومعاونوه يمثلون السلطان العثماني ويحكمون الولاية ويشرفون على إدارتها .. والديوان يعاون الباشا في الحكم ، وله حق عزله والاتصال رأساً بالباب العالي .. والحامية العثمانية تشترك في الحكم والإدارة أيضا .. إلى جانب مهمتها الحربية .. ثم هناك إلى جانب هذه الهيئات الثلاث هيئة أمراء المماليك من رجال العسكرية .. يشتركون في الحكم والإدارة وفي

وقد ألفت كتب في هذا الموضوع استعرضت تاريخ الفاجعة بصورة مسهبة ضفاضة وشحنت بالقصائد المدولة باللغة الفصحى والعامية كما أنه نشأ في الأدب الفارسي والأدب الهندي والتركي أيضاً قصائد طويلة تردد مأساة كربلاء وترى أبناء هذه الأمم ينشدونها عندما يقدمون العراق لزيارة قبر الإمام الشهيد في كربلاء أو أبيه في النجف الأشرف . وأن أبرز رثاة الحسين (ع) في الأدب العربي هو السيد حيدر الحلي وقد عرفنا به كتاب (العراقيات) بأنه كان رحمه الله شاعر العراق على الإطلاق حلّي البلد (نسبة إلى مدينة الحلة على الفرات قرب أطلال بابل التاريخية) هاشمي النسب ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) وقد ولد في شعبان في سنة ١٢٤٦ وتوفي في ربيع الآخر من سنة ١٣٠٤ هـ وعرف بشاعر أهل البيت حيث انتحى في أكثر شعره مدحهم ورثاءهم ؛ وقد بلغ من رثائهم درجة سامية لم يدع فيها سبقاً لمستبق من مقدمي الشعراء ومتأخريهم . على أنه لم يقصر في النسيب والفخر والمدح عن غيره من فطاحل شعراء العراق قال في رثاء سيدنا الحسين

قد عهدنا الربوع وهي ربيع أين ..؟ لا أين انسها المجموع
درج الحي أم تنبع عنها نجع الغيث أم بدهياء ريعوا
لا تقل شملها النوى صدعته إنما شمل صدري المصدوع
كيف أعيت بلسعة الهم قلبي وثراها يرق به الملسوع
سبق الدمع حين قلت سقتها فتركت السما وقات الدموع
فكأني في صحنها وهو قعب(١) أحلب المزن والجفون ضروع
بت ليل التمام أنشد فيها هل لماض من الزمان رجوع
شاطرتني بزعمها الداء حزنا حين أنت وقلبي الموجوع
يا طروب الضحى خلاك عني ما حنيني صبابة وولوع
لم يرعني نوى الخليط ولكن من جوى الطف راعني ما يروع
قد عذلت الجزوع وهو صبور وعذرت الصبور وهو جزوع
عجباً للعيون لم تغد بيضا لمصاب تحمر فيه الدموع
وأبي شابت الليالي عليه وهو للحشر في القلوب رضيع
أي يوم بشفرة البغي فيه عاد أنف الاسلام وهو جديع
ما لشمس النهار فيه طلوع ولشمس الحديد فيه طلوع
أبها طارت النفوس شعاعاً فلطير الردى عليها وقوع
قد تواصت بالصبر فيه رجال في حشى الموت من لقاها صدوع

الخ

ضياء الدخيلي

---

(١) القعب هو القدح الضخم .

الدفاع عن حدود البلاد وقد كان فى مقدور السلطان وفى استطاعته أن يقضى على قوات المماليك .. خصوصاً وأن الدولة العثمانية كانت فى ذلك الوقت فى أوج قوتها وعزها .. وكانت لها ممتلكات واسعة فى البلقان والأناضول والشام وأرض الجزيرة والفرات، وكانت تتمتع بسيادة كبيرة على شبه جزيرة العرب .. فكان فى إمكانه أن يشتت شمل هؤلاء المماليك ويفرق جموعهم .. ويقضى عليهم قضاء مبرما ، حتى لا تقوم لهم بعد ذلك قائمة .. ولكن السلطان سليم أبقاهم فى البلاد ، لأنه كان فى أشد الحاجة إليهم وإلى جهودهم .. كما أن بقاءهم فى مصر كان متمشيا مع سياسة الدولة العثمانية فى حكم الشعوب الخاضعة لها .. فالدولة العثمانية لم تغير كثيراً من نظم البلاد المفتوحة ولا سيما أن أمراء المماليك عاشوا فى مصر مدة طويلة .. وعرفوا أحوالها ، وخبروا عادات أهلها ونظم الحكم فيها .. فكان من السهل عليهم أن يديروا دفة الحكم فى البلاد ، بخلاف العثمانيين الذين لم تكن لهم سابقة عهد بمصر ولا بالمصريين .. ومن ناحية أخرى رأى السلطان سليم أن يترك أمراء المماليك يشتركون فى حكم البلاد ، ليحفظوا التوازن بين الوالى ورجال الحامية العثمانية وحتى لا يفكر أحد فى الاستقلال بحكم البلاد والخروج عليه فى يوم من الأيام .

يقول على باشا مبارك فى خططه التوفيقية .. الجزء السابع (لما أخذ السلطان سليم مصر .. ورأى غالب حكامها من المماليك الذين ورثوها عن ساداتهم ، ورأى أن بعد الولاية عن مركز الدولة .. ربما أوجب خروج حاكمها عن الطاعة .. وتطلعه للاستقلال .. جعل حكومة مصر منقسمة إلى ثلاثة أقسام .. كل قسم منها يشرف على القسمين الآخرين) ..

من هنا يتبين أن إبقاء المماليك فى البلاد ، وإشراكهم فى الحكم ، كان الغرض منه إيجاد التوازن بين الهيئات الحاكمة ، والاستفادة بهم فى حكم مصر ..

ظلت سياسة السلطان سليم معمولا بها طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر .. واستمر هذا النظام نافذاً طوال هذه المدة .. كانت فيه الدولة العثمانية حافظة لمركزها وعصمتها الحربية؛ فلما ظهر ضعف تركيا الحربى وانتشر الفساد والاضطراب داخل البلاد لم يعد هذا النظام نافذاً .. وأخذت قوة المماليك تزداد شيئاً فشيئاً حتى أصبحت لهم السلطة الفعلية فى البلاد ..

والسبب فى ذلك أن المماليك كانوا يشترون الرقيق من جورجيا والقوقاز وبلاد الجركس وكانوا يأتون بهم إلى مصر .. ويدربونهم فى سن مبكرة على أعمال الحرب والفروسية .. ويعلمونهم الكتابة والقراءة ويحفظونهم القرآن .. حتى إذا بلغوا الثامنة عشرة ، رقوهم إلى رتبة البكوية وحرروهم ومنحوهم مالا وأرضا وجوارى وهؤلاء يتزوجون بدورهم ... ويملأون بيوتهم بالرقيق كما فعل أسيادهم من قبل ... وهذا كان سبباً فى كثرة عددهم فى البلاد ... (١) حتى إن عدد المماليك الكبار فى أواخر القرن الثامن عشر عند زيارة (فولنى) لمصر بلغ نحو (٨٥٠٠ مملوك) ينفق الواحد منهم على سلاحه وملبسه وزوجاته وسراريه نحو (٢٥٠٠ جنيه) فى العام على تقدير فولنى . يقول على باشا مبارك (وأخذت البكوات تكثر من المماليك وتتقوى بها حتى فاقت بقوتها الدولة العثمانية فى الديار المصرية ، فآل الأمر والنهى لهم فى الحكومة ... وصارت سلطة الدولة العثمانية فى الديار المصرية غير حقيقية . ولو كانت الدولة العثمانية تنبهت لهذا الأمر ومنعت بيع الرقيق لكانت الأمور باقية على ماوضعها السلطان) ...

كان نتيجة لهذه السياسة ... أن قوى نفوذ المماليك لدرجة كبيرة جداً ... حتى إنهم كانوا يعزلون الولاة حيثما يشاءون . زد على ذلك أن ضباط الجيش وفرقه وهم أعضاء الديوان قد تدهورت حالتهم الأدبية ، وأفقدتهم عيشة الخمول والكسل صفاتهم الحربية الأولى ... فقربوا من بكوات المماليك الذين استأثروا بالسلطة وأصبح بيدهم الأمر والنهى فى البلاد « حتى إن أحد بكواتهم وهو على بك الكبير » استطاع أن يعلن استقلال مصر فى ١٧٦٩ .. كما أن المماليك كانوا كثيراً ما يماطلون الدولة فى إرسال الخراج .. « ولرغبة(٢) الدولة فى استرضائهم لكيلا يمنعوا الخراج عنها ... كانت لا تكاد تبعث بوال من قبلها ، حتى تعزله وتعين بدله ... حتى لقد بلغ عدد ولاتها منذ الفتح العثمانى إلى الاحتلال الفرنسى ... أى من سنة ١٥١٧ م — ١٧٩٨ نحو ٢٨٠ سنة أكثر من مائة وال قل من أقام منهم

(١) تنج مصر الحديث أو نابليون .. للأستاذ حافظ عوض .. عن كتاب ..

Voyage en Egypte et en Syrie pendant les années 1783 — 84 — 85 . C. F. Volney.

(٢) تنج مصر الحديث أو نابليون .. للأستاذ أحمد حافظ عوض ص ١٦

أكثر من عامين .. وكثير من بدل كل عام »

بهذا نكون قد بينا الأسباب التي دعت السلطان سليم إلى ترك المماليك في مصر .. وإشراكهم في الحكم .. ونكون أيضاً قد استعرضنا حالهم من وقت الفتح العثماني .. وبينا العوامل التي أدت إلى زيادة نفوذهم في البلاد .. وهناك ناحية أخرى يجب ألا نغفلها .. وهي حالة الشعب المصري تحت حكم هؤلاء المماليك .

قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، كانت التجارة تمر عن طريق مصر .. فكان المماليك يأخذون منها ما يشاءون من ضرائب وهدايا ورشا .. هذا غير السلب والنهب .. وكانوا قانعين بما يفرضونه من الضرائب على المتاجر الأجنبية .. وما يدخل في خزائنهم من المال .. بحيث لم يروا ضرورة لظلم الفلاح .. وأخذوا يعيشون عيشة بذخ وترف .. فيرتدون أحسن المنسوجات .. ويسكنون أفخم القصور .. ولكن الحالة لم تدم على ذلك .. فعندما تغير طريق التجارة إلى رأس الرجاء الصالح .. قلت الأموال التي كانت تتدفق على مصر .. فلم يجد المماليك بداً من فرض ضرائب باهظة على الأهالي .. ولم يكن شرههم إلى المال قاصراً على حاجتهم إليه .. فلو كان الأمر كذلك لهان الأمر .. ولكن نظامهم قضى بألا يقوم لواحد منهم شأن إلا بالإكثار من المال وذلك لشراء المماليك .. والإغداق عليهم من أمواله وجاهه حتى يظلوا على ولائهم .. لهذا أخذوا يمتصون دماء الشعب ، ويحملونه مالا طاقة له به[1] . حتى وصل الحال بالفلاح المصري إلى أنه لم يجد سكنا يقيم فيه . فكان يلتحف العراء ، وذو اليسار منهم يعيش في أكواخ من الطين ، ولا يجد الواحد منهم ما يأكله سوى الخبز الأسود المصنوع من الذرة والحلبة .. يتناوله بالبصل النيء أو الأعشاب التي يجمعها من حروف الترع والمجاري ، ويطبخها بغير إدام ، وكان رداؤه قطعة من القماش المصبوغ بالنيلة وهي ميراث الفلاحين وإليها ينسبون (أصحاب الجلاليب الزرقاء) .. وأما الغنى والرفاهية ، والبذخ ، والذهب ، والفضة .. فقد كانت للمماليك .. ذكر فولني في كتابه (رحلة إلى مصر وسوريا) أن علي بك الكبير ابتاع خنجراً مرصعاً بالجواهر الكريمة بمبلغ ٢٢٥ ألف جنيه ، وأنه حينما خذله أنصاره ، التجأ إلى صديقه الشيخ ظاهر في عكا ، وكان مقدار ما أخذه معه من الأموال (حوالي أربعة وعشرين ألف جنيه) ، يحملها على ٢٥ جملاً ، وكان معه من المصاغ والحلي ما يساوي أربعة أضعاف ذلك . ويذكر أحد المؤرخين الذين زاروا مصر بعد سقوط القاهرة في أيدي الفرنسيين أن الجنود الفرنسيين كانوا يجدون في ملابس كل واحد من المماليك الصرعى في ميدان القتال في واقعة امبابة مالا يقل عن مائتين أو مائتين وخمسين قطعة من الذهب عدا ما تقدر به ملابس الواحد منهم وطيلسانه وسلاحه وسراج جواده من المبالغ الطائلة ، هذا في الوقت الذي لم يكن أهل مصر يجدون فيه ما يأكلون !

وكان المماليك كثيراً ما يتنازعون فيما بينهم للوصول إلى الحكم ، ووجدت بينهم فتن وقلاقل وحروب داخلية عنيفة كانت توقع الفوضى بالبلاد ، وكانت الدولة العثمانية تعمل على بقاء هذه المنازعات بينهم .. بل إنها كانت تعمل على التفرقة بينهم وغرس بذور الأحقاد في صدورهم . حتى لا يستبدوا بالسلطة . فلم يكن من المعقول — والحال كذلك — أن تصلح حال الشعب المصري ، وحكامه المتصرفون في أمره .. منقسمون على أنفسهم ، لاهم لهم إلا جمع الأموال .. ولا غرض لهم ولا مأرب إلا الوصول إلى الحكم والسيطرة على مقاليد الأمور في البلاد .

كما أن المماليك كانوا كثيراً ما يعزلون الولاة . فلم تتح لهؤلاء الفرصة للاصلاح .. ولقد كان بعض أولئك الولاة كما أثبت المؤرخون ، من أهل الكفاية والإخلاص ، وذوي الرغبة في إصلاح ما اختل وفسد من شئون هذه البلاد .. فلا يكاد يشعر المماليك برغبته في الضرب على أيديهم .. وكف مظالمهم — حتى يقرروا عزله ، وكانت الدولة العثمانية تساعدهم على ذلك وتسترضيهم حتى لا يمنعوا عنها الخراج .

لقد أخطأت الدولة العثمانية في سياستها مع المماليك — كما أخطأ المماليك في إدارة حكم البلاد ، وسواء أكان الخطأ يقع على كاهل المماليك أم على كاهل العثمانيين .. فإن هذه السياسة الخرقاء التي اتبعها كلا الفريقين . كانت من أكبر الأسباب التي أدت إلى وقوع الفوضى والاضطراب في مصر ، وبالتالي إلى دخول الفرنسيين في سنة ١٧٩٨ م .

(الإسكندرية) عبد الباسط محمد حسن

ليسانس آداب

(١) نفس المصدر .

الباكستان (١)

وعلاقتها بالعالم العربي والإسلامي

للدكتور حسين الهمداني

شاهد العالم خلال الأحقاب الطويلة البعيدة عدة حضارات ازدهرت فى كثير من أرجاء العالم منها الحضارة التى قامت حول البحر الأبيض المتوسط . وقد قسم المؤرخون هذه الحضارات إلى قسمين : قسم يشمل بلاد الشرق من هـذا البحر ، وقسم يشمل بلاد الغرب منه . والحضارة التى تهمنا اليوم هى حضارة هذا القسم الشرقى الذى يمتد من شمال أفريقيا شرقا حتى يقف عند نهاية الباكستان . وقد ظلت حضارة الجناح الأيمن هذا تشع على العالم أجمع نوراً من العلم والمعرفة والثقافة ، كان يسرى بين خيوطه إشعاعات علم الأقدمين كاليونان والرومان .

وكانت هذه الحضارة متفقة مع الحضارة الغربية فى كثير من الأسس ، فقد كانت الحضارتان قائمتين على أساس ديانتين عظيمتين كما كانتا تأخذان من تلك الحضارات القديمة كثيراً من مقوماتها ؛ وهكذا اتحدت الحضارتان فى الأسس والدعائم .

وقد كانت الباكستان ، ولو أنها كانت جزءا من الهند ، على وثيق بالشرق الأوسط ، وكانت ، تأخذ من حضارة الجناح الأيمن الشرقى ، لأنها كانت تدين بدينه وتتعلق بآرائه وتأخذ من ثمرات مجهودات مفكريه الذين اقتبسوا كثيرا من عصارة ذهن اليونان والرومان والفرس ، وكانت شديدة الصلة بالكلدانيين الذين استوطنوا العراق قبل ٧ آلاف سنة ، كما اتصلت بالبابليين وكما وربطت بينها وبين دولة الفرس روابط تجارية ثقافية .

ولدخول الإسلام فى الهند قصة ... إذ قام العرب بعد موت النبى صلوات الله عليه بخمس وعشرين سنة بغزو إيران وسوريا وأرمينيا وقسم من وسط آسيا ومصر . وسار المسلمون فى فتوحاتهم نحو الشرق صوب هيرات وكابول وبلخ ، حتى بلغوا نهر الأندس والسند ؛ وهنا تمكنت العلائق بين العرب وأهل السند وهم الذين يكونون اليوم غرب الباكستان ، وبقيت متينة خصوصاً مع الحكام المنفرد فى الجنوب مما نتج منه توطن الشاطئ الغربى بواسطة كثير منهم ، حيث بنوا المساجد ... ...

ومع أن مسلمى الهند كانوا يعيشون مع غير المسلمين هناك عيشة قريبة متمازجة يفرضها الوضع الجغرافى إلا أنهم كانوا شديدى البعد عنهم فيما يتصل بعباداتهم وتقاليدهم وثقافتهم ورغباتهم . وعلى رغم هذا الوضع الذى كان يقرب بينهم كان المسلمون يتجهون بكل نفوسهم إلى العرب ومسلمى الشرق الأوسط وكانوا يتخذون اللغة العربية لغة للعلم والدرس يؤلفون بها ويؤسسون لها المدارس والمعاهد والجامعات فى جميع بلدان شبه القارة .

ولم تقتصر هـذه الرابطة على تبادل التجارة أو بعض الأفكار الثقافية بل امتدت الرابطة إلى ما هو أبعد من هذا ، امتـدت إلى أن خضع المسلمون هناك لطاعة الخليفة ، كما دانوا له بالولاء . وفى فتح البلدان يقول البلاذرى : إن حكام السند العرب كانوا يلقون خطبة الجمعة متوجة باسم الخليفة ، كما ضربوا العملة باسمه ؛ وظل الحال على هذا من هذه الفترة إلى أن تقوضت الخلافة الإسلامية بتركيا .

وظلت العلاقات قائمة بين المسلمين هناك وبين الشرق الأوسط إلى عصرنا الحديث ... ... ولم يكن المسلمون ليتوانوا لحظة فى خلال كل هذه السنين عن الشعور بنفس الشعور الذى يساور أهل الشرق فقد كانوا يفرحون لفرحه ، ويتألمون لألمه . وكانوا يعتقدون أن هذا الشرق ما هو إلا جسم واحد إذا اشتكى منه عضو تألم له بقية الأعضاء ، وإذا أصاب طرفا منه خير أو شر فإنه سرعان ما يصيب كل البلاد قاصيها ودانيها .

ولم يكن مسلمو الهند فى جهادهم بمنأى عن هذا الشرق ، لأنهم كانوا على اتصال وثيق به ، يربطهم به رابطة الدين ورابطة الألم ورابطة الظلم الذى يحل به ، ورابطة القسوة التى يجابههم بها الأقوياء ، ورابطة الحذر مما يبيت المسلمين قاطبة من كيد ومن غدر ، فقاموا من ساعتهم ، فى الحدود التى حاولوا فيها أن يصلوا إلى أقصى ما يستطيعون رغم الاستعمار الأجنبى ، يريدون الوقوف إلى جانب إخوانهم المسلمين فى كثير من المواقف وفى كثير من المحن ؛ فهم حزنوا لتفكك الخلافة ولانهيار الإمبراطورية العثمانية ، لأنها كانت تمثل فى نظرهم قلعة الإسلام . وقاموا يحتجون لدى انجلترا على المعاملة التعسفية التى عاملوا بها مصر عام ١٩٢٤ حينما قتل السردار لى ستاك باشا ، واحتجوا لديها كذلك ولدى عصبة

(١) الكلمة التى ألقيت يوم ١٤ أكتوبر بنادى خريجى الجامعات [illegible]

تاريخ استخدام الدبابات

في جيش المسلمين

للأديب عطا الله ترزي باشي

يرجع تاريخ استخدام الدبابات في الحروب إلى وقت نشوء العجلات الحربية. وقد وجد في العراق كثير من التصاوير التي تكشف لنا عن وجود العجلات غير الحربية منذ سنة (٢٠٠٠) قبل الميلاد، أما الحربية منها فوجدت في الصين سنة (١٤٥٠) ق. م. وظهر بنتيجة البحث والتدقيق أن استخدام الدبابات لأول مرة في التاريخ كان في إحدى الحروب الدائرة بين المصريين والحيثانيين (الانسيكلوبيديا التركية «اينونو»، جـ٣، ص ١٩٥، سنة ١٩٤٩).

وفي الواقع كان المصريون القدماء أول من استخدموا الدبابات في الحروب، ومن بعدهم الآشوريون فاليونانيون القدماء ومن بعدهم العرب (تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان، جـ١، ص ١٦٠).

وكان المسلمون يتخذون الدبابات لاختراق أسوار العدو، وهي آلات من الخشب الصفيق، وقد تكون طباقاً، وتغلف بالجلود المنقوعة في الخل لدفع النار. وتركب على عجل مستدير يدفعها الرجال ويصعد الجند في أعلاها ويستعلون على السور. وقد يستخدمون الدبابات لهدم الأسوار فيسيرونها ويحتمون بجدرانها ويحملون رأسها محدداً يصدمون بها الأسوار حتى تهدم (المرجع السابق).

وقد استخدم المسلمون الدبابات لأول مرة في السنة الثامنة من الهجرة أثناء غزوة الطائف (أحمد رفيق، الغزوات النبوية، حاشية ص ٤٥).

وكذلك جاء ذكر هذه الآلة في كتاب آخر للأستاذ نفسه (باللغة التركية) وهو كتاب (تاريخ الانتصارات العثمانية) نقلا

الأمم عندما امتد الانتداب البريطاني على العراق خمس وعشرين سنة تالية، واشتركوا في مؤتمر الخلافة سنة ١٩٢٥ واحتجوا لدى الفرنسيين يوم أن ضربوا دمشق بالمدافع ... وكانوا ولا يزالون يتألمون لما يصيب إخوانهم عرب مراكش وتونس والجزائر من ذل يفرضه عليهم المستعمر الغاشم.

وإني لأؤكد أن الباكستان في قوتها دولة إسلامية لم تقم لخدمة بنيها فقط، وإنما قامت لخدمة الإسلام أنى وجد، فكثيراً ما كانت تناهض انجلترا لإصدارها وعد بلفور بصدد فلسطين. وكثيراً ما حاولت انقاذ هذه البلاد من مخالب الصهيونيين لأنها تؤمن بأنها بلاد تهم المسلمين أجمعين. ولا أظنني أخالف الواقع إن قلت إن زعيمنا الخالد الذكر محمد علي جناح كان ينذر العالم الإسلامي منذ قديم الزمان باحتمال قيام الخطر الصهيوني، وها قد تحققت مخاوفه، وأصبحنا نرى نذر الخطر تبغى الانقضاض علينا. الحق يحضنا على ذلك فقد ورد في القرآن الشريف «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل» وليس هناك إلا تقوية الجيوش وحشد القوات، لأن هذه هي اللغة الوحيدة التي يفهمها العالم اليوم وليس هناك إلا إنشاء المصانع وعمل الذخائر، فنحن اليوم في عالم خلا من وازع الضمير، وضاع فيه معنى الحق ومعاني الشرف وأصبحت الكلمة للمدافع والهيبة للقوي؟ فماذا يمنعنا والحالة هذه أن نعمل لهذه القوة وما الذي يحول دون بلوغنا هذه الغاية؟

لقد آمنت الباكستان بكل هذا وراحت تقوي جيوشها وأسطولها، وليس معنى هذا أنها تطلب سيادة أو تريد إيقاع العدوان على أحد، بل هي تريد أن تبقى محترمة مرهوبة الجانب لا تهددها، وتضرب من يهاجمها ... ...

توخيت في هذه العجالة أن أبين مدى ارتباط الباكستان بالشرق، وكيف نريد ونأمل أن يكون عليه هذا الأخير من قوة ومنعة، لأننا نريد للإسلام رفعة الشأن وقوة الجانب، وليس هناك للإسلام موطن، وليس له حدود ... ...

وواجب أن أنوه بأن كلامي هذا لا يشتم منه رائحة العنصرية ولا المذهبية، وأريد أن أزيد بأني لست متعصباً ضد أية ديانة أو مذهب، وإنما أنا متعصب لديني، ومتعصب لبلادي أريد لها ولمن يشترك معها أن يترسموا الطريق نحو العزة والسؤدد وأن يصلوا إلى المكانة العليا التي يبوئها لهم إيمانهم ودينهم وتسامحهم ... ... و «ويرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات».

حسين الهمداني

عن كتاب (كوكب السعود فى كوكبة الجنود لابن إسحاق. ص٧٧). إنه فى غزوة الطائف استخدم المسلمون الدبابات المصنوعة من جلود الأبقار التى لا تتأثر كثيراً بمقذوفات العدو، وتقدموا بها نحو السور لإحراق الأمكنة المجاورة له. غير أن أفراد قبيلة ثقيف المحصورين فى البلدة بدأوا يرمونها بقطع من الحديد المحماة بالنار ... (حاشية ص ٢٥٠، ٢٥١ من المرجع السابق).

ويبحث الأستاذ محمد حسين هيكل فى كتابه «حياة محمد» عن استخدام المسلمين الدبابات فى غزوة الطائف بشىء من التفصيل، فيقول:

إنه لم يكن من اليسير أن يقتحم المسلمون هذه الحصون المنيعة إلا أن يلجئوا إلى وسائل غير التى ألفوا حتى اليوم حين حاصروا قريظه وخيبر ... فما عسى أن تكون هذه الوسائل الجديدة التى يهاجمونها بها؟ ...

وكان لبنى دوس (إحدى القبائل المقيمة بأسفل مكة) علم بالرماية بالمنجنيق ومهاجمة الحصون فى حماية الدبابات. وكان أحد رؤسائها الطفيل قد صحب محمداً منذ غزا خيبر؛ وكان معه عند حصار الطائف؛ فأوفده النبى إلى قومه يستنصرهم؛ فجاء بطائفة منهم ومعهم أدواتهم؛ فبلغوا الطائف بعد أربعة أيام من حصار المسلمين إياها. ورمى المسلمون الطائف بالمنجنيق وبعثوا إليها بالدبابات دخل تحتها نفر منهم ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه، ولكن رجال الطائف كانوا من المهارة بحيث أكرهوا هؤلاء على أن يلوذوا بالفرار. فقد أحموا قطعاً من الحديد بالنار، حتى إذا انصهرت ألقوها على الدبابات فحرقتها، ففر جنود المسلمين من تحتها خيفة أن يحترقوا. (حسين هيكل، حياة محمد، ص ٤٢٠، ٤٢١).

ويظهر أن الدبابات فى السابق وإن كانت لها قيمة كبرى فى الحروب لإخافة العدو وإثارة ضجيجهم، فإنها لم تنل حظاً فى إحراز النصر حيث كانت عرضة للاحتراق، فإن موادها المركبة من الجلود والأخشاب كانت سريعة التأثر بالنار. وقد حاول المهندسون المسلمون عبثاً إيجاد بعض الوسائل لتقيها من الأخطار المعهودة. فاستعملوا الجلود المبلولة بالماء والمشاقة بالخل ولكنهم لم يفلحوا.

ويحدثنا الأستاذ أحمد بدوى فى مقال له تحت عنوان «القوة الحربية فى مصر والشام» كتبه فى مجلة الرسالة عدد ٨٠٩ وتاريخ ١٤ — مارت — ٩٤٩ نقلا عن (النوادر لابن شداد، ص١٠٣) عن عظمة الدبابات التى استخدمها العدو فى حصار عكا، بما يلى:

«صنع العدو ثلاثة أبراج من خشب وحديد وألبسها الجلود المسقاة بالخل بحيث لا تنفذ فيها النيران؛ وكانت هذه الأبراج كأنها الجبال عالية على سور البلد، ومركبة على عجل يسع الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفر، ويتسع سطحها لأن ينصب عليه منجنيق، وقد ملأ ذلك نفوس المسلمين خوفاً ورعباً، ويئس المحصورون فى المدينة، ورأوها وقد تم عملها ولم يبق إلا جرها قرب السور. وأعمل صلاح الدين فكره فى إحراقها ووعدهم على ذلك بالأموال الطائلة والعطايا الجزيلة، ولكن ضاقت حيلهم عن ذلك. وكان من جملة من حضر شاب نحاس دمشقى ذكر بين يديه أن له صناعة فى إحراقها وأنه إن مكن من الدخول إلى عكا وحصلت الأدوية التى يعرفها أحرقها، فحصل له جميع ما طلبه، ودخل إلى عكا وطبخ الأدوية مع النفط فى قدور نحاس حتى صار الجميع كأنه جمرة نار، ثم ضرب واحداً بقدر فلم يكن إلا أن وقعت فيه، فاشتعل من ساعته ووقته، وصار كالجبل العظيم من النار طالعة ذؤابته نحو السماء واستغاث المسلمون بالتهليل، وعلام الفرح حتى كادت عقولهم تذهب. وبينما الناس ينظرون ويتعجبون إذ رمى البرج الثانى بالقدر الثانية فما كان إلا أن وصلت إليه واشتعل كالذى قبله فاشتد ضجيج الفئتين، وما كان إلا ساعة حتى ضرب الثالث فالتهب، وغشى الناس من الفرح والسرور ما حرك ذوى الأحلام».

وحسب ما نعلم كانت هذه المواد هى زيت النفط والكبريت والجير والقار فتتكون من خلطها النار اليونانية. وقد أشار إلى استعمال المسلمين هذه النار فى الحروب الصليبية الأستاذ كوستاف لوبون فى كتابه (المدنية العربية، ص ٥١٤، ٥١٥).

ويروى الأستاذ أحمد بدوى فى المقال السابق الذكر نقلا عن (خطط المقريزى، ج ١ ص ٣٤٧) أن الفرنج هاجموا دمياط سنة ٦١٥ فى آخر أيام العادل وعملوا آلات ومرمات وأبراجاً متحركة

سكك حديد الحكومة المصرية

إلغاء رسم السفر بالقطارات السريعة

يتشرف مدير عام سكك حديد الحكومة المصرية بأن يذكر الجمهور بأنه قد تقرر عدم تحصيل رسوم إضافية على السفر بالقطارات السريعة الآتية والتي تسير بين مصر واسكندرية والعكس وبين مصر والأقصر والعكس بالدرجات الثلاث ابتداء من أول نوفمبر سنة ١٩٤٩ : —

القطار الذي يغادر مصر إلى اسكندرية في الساعة ٣٠ و ٨ وفي الساعة ٣٠ و ١٧

القطار الذي يغادر اسكندرية إلى مصر في الساعة — و ٨ وفي الساعة — و ١٧

القطار الذي يغادر مصر إلى الأقصر في الساعة ١٠ و ١٢

القطار الذي يغادر الأقصر إلى مصر في الساعة — و ٥

ولزيادة الايضاح يستعلم من المحطات .

مطبعة الرسالة

٣ ـ من شجرة الدر

لحضرة صاحب السعادة عزيز أباظة باشا

عز الدين أيبك — شجرة الدر

أيبك : قد كنتِ واثقة الآراء بارعة الـ
تدبير ماهرة للحزم والرشد

شجرة الدر : بالغتَ أيبكُ

أيبك : بل قصرتُ مالكتي

شجرة الدر : خذك مِن الرضا يا صاح فاقتصد

أيبك : أمرفتُ يا ملكة الوادي ؟! أما رأمت

بذاك مصر فعاشت عيشة الرغد
دفعت عنها عِداها واعتليت بها
مقادم الجد فى أيامك الجدد
وقدتها للمعالى واحتشدت لها
فأصبحت غرضاً للحقد والحسد

يا ربة التاج

شجرة الدر : هذا التاج منّت به
قدماً

أيبك : وكيف ؟

شجرة الدر : أما أبصرتَ ما يقع ؟
وزادنى فيه كرهاً أن نُسبت له
وكنت باسمى تدعونى فأستمع

أيبك : جلالة الملك أنسته عنك لى أملاً
(فى مرارة) ما زال يهفو له قلبي ويندفع
ولمة التاج لم تطفئ رونقها
سوى رجائى وكان الدهر يلتمع
يا عصمة الدين[1]

الملكة : عز الدين قلت فلم

تنصف وأنت على نجواى مطلع
أنت الذى مسَّ قلبي فاستجاب له
وعاد يرتاح للدنيا ويتسع
رجعته وهو ثاو فى أضالعه
أضحى عليه الضنى والوجد والجزع

أيبك : لما وليت أمور الملك قلتُ مضى
عهد الهوى وانقضت فى إثره المتع
وقلت للنفس : تلك الشمس كيف لها
ترقى وأنت الغنيّ العاجز الضرِعُ
طويت روحى على يأس وهبت بها :
قرّى بيأسك ، لا يجنح بك الطمع

شجرة الدر : فدتك نفسيَ عزّ الدين . أى أسى
يهتاج فى عتبك الباكى ويندلع
لا شيء كالحبّ — لا ملكٌ، ولا ولدُ
ولا شباب ، ولا الدنيا بما تسع
والحب إن كرُمت أعراقه وصفت
يسمو على قِيَم الدنيا ويرتفع
ما أضيع المرء إن لم تحترق كبدٌ
وتحتدم لوعةٌ فى القلب تصطرع

أيبك : يا عصمة الدين هذى ليلة كرُمت
كأنها من ليالى الخلد تنتزع
بشتنى حيث لم أجرؤ على أمل
وحيث كل رجاء فيك منقطع
وحين نفسي — رعاك الله — تائقة
وحين قلبي — وقاك الله — منصدع
أهواك ... أهواك ألواناً فأيسرها
مُدى تَوارَى فى صدرى فتقتطع
ما زلت والسن تلوى بى أذوب جوى
إذا همست واستشنى وأمتنع

شجرة الدر : (وهى تسترد جأشها)
لا بل تحب كأمثال الرجال إذا
هاموا فلا الضعف يعروهم ولا الجزع

---

(١) أحد أسماء شجرة الدر .

ما كنت والتاج يُزهى بى سوى امرأة
تأوى إلى الرجل الحـانى فتمتنع

أيبك : نفسى فـداؤك قد مزقتها قطعاً
وعضّها الألم القـدسى والسقما

شجرة الدر : وكيف ؟

أيبك : من غيرة كالنار حاطمة
والموج مصطخباً ، والسيل مندفعاً
تظل تعصف بى عصفا

شجرة الدر : سلمت ولمْ
هذى الشكاية ؟

أيبك : غيرى فيك من سلما
كم بت غيران ممن قد أنست به
ومن هششت له فارتاح وابتسما
ما إن تحدثت فى لين إلى رجل
إلا أثرت بقلبى فتنـة عمما
وما هششت لبعض الناس عن عرض
إلا نزا الهمّ فى جنبىّ واضطرما
الغيرة الحبّ ما شبت ... فإن خمدت
فقل مضى الحبّ فى أذيالها قدما

شجرة الدر : ممن تغـار وقلبى أنت مالكه
وبا هواك وأرمى فيـه فاحتكما

أيبك : إنى فريس جوى ما إن خلوت له
إلا انتهى لشغاف القلب فاصطلما
(ثائراً) إنى أغار من الماضى

شجرة الدر : أأعقل ما
تلـق !

أيبك : أغار من المـاضى الذى انحسما
أغار من كلّ من قد ظنّ أن مُلئت
يداه منـك فرد النفس واعتصما
أغار من كلّ من أفضى إليك ومن
أثنى عليك ... وإن قال الذى علما
أغار من كل ذى شأن بذلت له
عطفاً فقبّل منه الراح والقدما
وددت لو كنت لى لم تعرفى أحداً
ولا بنى بك زوج ... هان أو عظما
عيناك مشرع ما ألقاه من قلق
الله بالسحر والإغراء عليهما
فما تحركتا إلا وأيقظتا
فى الناظرين الهوى والشوق والنهما
يا أطهر الناس عرضاً ما نجوت من الـ
ـجانى الذى يثلم الأعراض والحرما
أمضهم أنك استعذبت قربتهم
وإن رضيت على علاتها التهما

عزيز أباظة

تعقيبات

للأستاذ أنور المعداوى

من صدى الدموع التى شابت :

لله هذا القلم الذى تقلبه بين أناملك فيسطر كلمات هى فى أغوار القلب أنغام وألحان — فيها الشجن العارم والحزن القيم ، وفيها الحنان الشفيف والأخوة المتسامية ، وفيها الإنسانية تحلق فى جواء مترعة من الأفكار وعالم حالم من الصور ! هنالك حيث يلتقى الناس إخوة — وتتناجى الأرواح فى همس .

كم حلقت بى كلماتك النابضة التى تتنفس على صفحات الرسالة والتى قرأتها اليوم — تلك القصة الرائعة التى سجلها قلمك الحلى والتى أعجب أنك إنما صغتها من كلمات وكلمات فقط . نعرفها جميعاً ونقرؤها كثيراً ، ولكنها تجمع هنا وتتآلف لتكون لحناً وتصوغ سمفونية خالدة !

قصة الدموع التى شابت !! كم حركت الشجن فى صدرى ، وكم أثارت كوامن الحزن فى نفسى — نفسى التى عرفت الحزن وألفته وهامت به ، الحزن الذى يصقل النفس ، ويبلور العواطف ، ويجنح بالفكر إلى العلو ..

هذا الصديق الذى كان لنا توارى بين لجج الصمت ، وكان حلماً تبدد على صيحة مفزعة لملك الموت — هذا الإنسان الذى عاش فى حساب الزمن سنوات قلائل ، وعاش دهراً فى حساب التجارب والمحن .. هذا الإنسان الصديق ، الذى لم أره من قبل أريد ياسيدى الكاتب أن أعرفه .

اكتب لنا قصته فهو أولى الناس بأن تكتب عنه . لا تهب ياسيدى نبش القبور ، ولا تردد فى تقليب الذكريات وبعثها من مثواها الأخير ، الثائر فى أعماق الصمت . . فقد مات الإنسان ولا أحد يعرفه ، عاش مقبوراً ومات كذلك . ذهبت الأنات لم تصل إلى أذن ، وتبددت الزفرات لم يشعر بها إنسان إلا أنت . . لقد ثوى الجسد فى القبر وأصبحت الذكريات ملكا للإنسانية الهائمة على مسرح الأرض . ونحن بغير تجاربنا ندور حول أنفسنا ، نبدأ ثم نعيد ، مغمضى الأعين ، مغلقى السمع ، مطموسى الحس .. فاكتب عنه ياسيدى على ضوء تلك الرسائل التى بعث بها إليك ، فإنك إذ تفعل إنما تضيف إلى تجارب الإنسانية تجارب . وإلى روضة الفن باقة غالية !

إفعل ذلك بحق الفن . . وفى الانتظار ، تقبل تحيات المخلص المعجب :

سعيد كامل

كلية الآداب — قسم الفلسفة

هذه رسالة من بضع رسائل تلقيتها حول قصة الدموع التى شابت . إنها تعبر عن رجع الصدى العميق الذى هز قلوبا ومشاعر وتنوب عن بقية الرسائل فى إظهار الحنو النبيل الذى تدور حوله رغبة ورجاء .

ياصديق الذى كتبت إلى .. لقد كنت أود أن أقص عليك وعلى الناس قصة ذلك الإنسان البائس ، ولكن هناك أحياء سينفجر مداد القلم دماء جراحهم إذا ما كتبت !. إن وراء السطور مأساة نسج خيوطها القدر ، وقام بإخراجها الزمن ، واشترك فى تمثيلها بعض الناس . . فيهم الشيطان الماكر ؛ وفيهم الملاك الطاهر ، وفيهم الإنسان الشهيد ! أما المسرح فقد كان هناك . . فى الإسكندرية ، وأما النظارة فقد كانوا هنا — فى القاهرة ، كانوا فرداً واحداً يستمع إلى القصة تنقل إليه على أمواج الأثير فى كلمات ، ولكم تناول هذا الفرد الواحد قلمه ليجفف الدموع التى فاضت — ولكنها شابت ! !

وهاهو ذا يحاول اليوم أن يكتب القصة ، ولكنه يقف حائراً بين أمرين : رغبة القراء — ولوعة الأحياء ! ترى هل يرضى الفن فيستجيب لندائه ، أم يخضع لصوت الضمير فيقبض قلمه إلى حين — إلى أن تهدأ الرياح ، وتلتئم الجراح ، وتنكسر أمواج المحنة على شواطئ النسيان ؟ !

إنى فى انتظار الرأى من كل صاحب رأى — وعلى الذين ينشدون عرض المأساة على صفحات الرسالة أن يقدروا معنا الحقيقة وهى أن هناك أموراً على جانب من الخطورة ستذكر ، ولا آمن إذا ما اطلع عليها أصحابها أن يتهدم بيت وتتحطم أسرة ! !

أدبنا بين المحلية والعالمية :

أسمع صيحة تتردد على الشفاه أحياناً ، ثم تنتقل من الشفاه إلى الورق أحياناً أخرى ؛ أعنى أنها تنتقل من ميدان الحديث

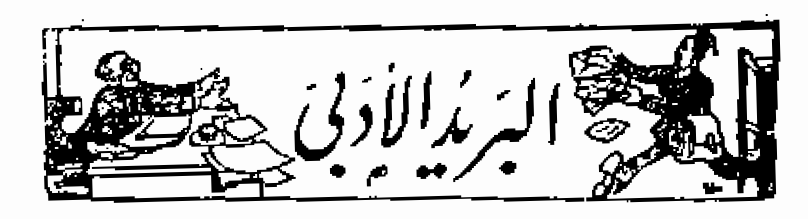
المسموع إلى ميدان الرأى المكتوب ... وجوهر الصيحة أو خلاصتها هو أن أدبنا لا يمثلنا ، وهدفها أو غايتها هو أننا نريد أدبا مصريا ؛ أدبا ينبئ عن الشخصية المصرية ، ويومئ إلى الطابع المصرى ، ويقتبس من بيئتنا صوره وألفاظه ومعانيه !

صيحة يطلقها بعض المتعصبين عن جهل ، ورأى يجهر به بعض المتطاولين بغير علم ، و « وطنية أدبية » ينادى بها بعض « القوميين » على غير هدى وبصيرة ... يريدون أدبا مصريا ، ماذا يقصدون بالأدب المصرى ؟ هل يقصدون أن يهمل الكتاب والشعراء والقصاصون كل ما يتصل بالتجربة الشعورية الخاصة ، وبالنفس الإنسانية العامة ، وبالحياة فى كل أفق من آفاقها الرحيبة ، ليفرغوا لكل مشكلة يومية تعترض طريق الكادحين من أبناء الشعب ، وكل ظاهرة اجتماعية تهم المشرفين على مصالح الناس ، وكل مشهد تقع عليه العين ويلتقطه الخاطر فى نطاق المجتمع الذى يعيشون فيه ؟! . أغلب الظن أنهم يرمون من وراء صيحتهم إلى هذا كله ؛ وإلى ما هو أبعد من هذا كله ؛ فإذا رحل الشاعر المصرى مثلا إلى ربوع سويسرا وجادت عليك براعته شعرية حول بحيرة ليمان قالت له ألف صيحة وصيحة : هذا أدب سويسرى هذه بضاعة أجنبية ، نريد أدبا مصريا نريد بضاعة وطنية ... عندك يا أخى بحيرة البرلس وبحيرة أدكو وبحيرة المنزلة ، ألا ترى أننا فى غنى عن أن نستورد من الخارج ؟ ! وإذا تنقل القصاص المصرى مثلا بين أحياء باريس ثم مكث وبعثه بعض صور الحياة فى مونبارناس قالت له ألف صيحة وصيحة : هذا أدب فرنسى هذه آفاق غربية ، نريد أدبا مصريا نريد آفاقا شرقية ... عندك يا أخى حى السيدة والحسين وخان الخليلى ، ألا ترى أننا فى غنى عن أن نستورد من الخارج ؟! وإذا طاف الكاتب المصرى مثلا بأى بلد أوربى فاستمع إلى أدبائه ونقل ما سمع إلى مواطنيه ، أو قضى ساعات بين كتب الغرب ثم تحدث عن رحلته الفكرية إلى قارئيه قالت له ألف صيحة وصيحة : هذا أدب المرتطنين هذه أفكار أعجمية ، نريد أدب المطربشين نريد أفكاراً عربية ... يا أخى عندنا فلان وفلان وإنهم لمن سلالة الجاحظ وأبى حيان وابن المقفع وابن العميد فالنا ولجان سارتر وجورج دیهامل وبول كلوديل وأندريه جيد ؟ ألا ترى أننا فى غنى عن أن نستورد من الخارج ؟!

هذا هو جوهر الصيحة أو خلاصتها أو هذا هو الهدف الذى تلوذ به وتسعى إليه ، ولك أن ترد الجوهر والهدف معا إلى تلك الدوافع التى حدثتك عنها من قبل ، ولك أن ترد تلك الدوافع إلى مصدر واحد هو مركب النقص ... يريدون أن يحصروا الأدب المصرى فى بيئتهم لأنهم لا يعرفون غير هذه البيئة ، ويريدون أن يفرضوا على الأدب المصرى ألا يتحدث بغير لغتهم لأنهم لا يفهمون غير هذه اللغة ، ويريدون أن يقصوا أجنحة الأدب المصرى إذا حلق فى غير أفقهم لأنهم لا يطيقون غير هذا الأفق ، ويريدون أن يكتموا أنفاس الأدب المصرى إذا عب من هواء الحرية فى غير جوهم لأنهم لا يستطيبون غير هذا الجو بما فيه من هواء ... ولا بأس من الجمود والركود ، ولا بأس من الخمول والرجعية ، ولا بأس من البقاء فى المعاقل دون التطلع إلى ما وراء الأسوار . لا بأس من هذا كله ما دمنا نريد أدبا مصريا ، أدبا يمثلنا ، أدبا لا يصح أبداً أن يتخطى حدود الزمان والمكان ! !

أدب على هذا الذى يريدون ، لأنهم لا يدركون أثر العالمية فى الأدب ولا قيمتها فى حساب الخلود ... كلا يا أصحاب الصيحة الثائرة والغيرة الصاخبة ، إننا نريد أدبا إنسانيا لا مصريا ، أدبا يقرؤه الذين هنا والذين هناك ، أدبا يفتش عن مصادر الإلهام ومنابع الوحى فى كل قطر من الأقطار وكل بقعة من البقاع ، أدبا يخاطب الوجدان فى كل نفس بشرية ويستنطق الحياة أينما طافت مدفته بمراكب الأحياء ، أدبا يطالعه القارئ من كل جنس ولون فيحس أنه قد كتب له ، أدبا يصور الخلجة كما تضطرب فى أعماق الصدر ، والخفقة كما تهدر من أغوار القلب ، والنزعة كما تنحدر من أوكار النفس ، والنزوة كما تنزى بين قيود الطبع ... وهذه هى المرآة الصافية المصقولة التى تلتقى على صفحتها كل الوجوه ، وتأتلف كل المشاعر ، وتتمازج كل الأرواح . هنا وفى كل أرض يرتفع فوق ثراها صوت الفن ، وترفرف فى سمائها راية الفكر ، وتتجاوب فى أرجائها صيحات الباحثين عن أنفسهم فى زحمة هذا الوجود !!

إنك لن تجد فى فرنسا من يقول نريد أدبا فرنسيا ، ولن تجد فى روسيا من يقول نريد أدبا روسيا ، ولن تجد فى ألمانيا من يقول نريد أدبا ألمانيا ، ولن تجد فى إنجلترا من يقول نريد أدبا



تعبير جزل وليس فيه مجانبة :

« يا ابنة الله » وبا عين الله » تعبيران وردا فى مناجاة الأستاذ الراعى للشمس فى العدد ٨٤٠ من الرسالة ... وإذا كان لى أن أعقب بكلمة لذينك التعبيرين الرائعين فإعا الدافع لذلك كتابان للأستاذين الفاضلين دسوقى حنفى وثروت أباظة . . فى الأول سؤال للتبيين : فصاحبها يطلب ما غمض عليه وأعجم من التعبير خدمة للحقيقة والأدب كما يقول . وفى الثانية استنكار لهذا التبيين « بعد أن أوضحه الأستاذ الراعى فى العدد ٨٤٧ من الرسالة » فصاحبها وهو الأستاذ ثروت يقول : لم شط فى التعبير وكان الله غفوراً رحيما ... ويسترسل فى استنكاره مستغفراً ربه لهذه الأمة طالباً منه الهداية والتوبة والرحمة ... ويبدو لى من ثنايا كلته أنه أراد أن يتوكأ على هيكل التفسير للأستاذ الراعى ليتسنى له هدم الأصل للمثل فى التعبيرين السالفين . ومهما يكن الأمر غير ذلك فقد يكون الأستاذ ثروت محقاً فيما يذهب إليه ويستنكره إلى حد ما إذا نظرنا إلى الأمر من زاوية واحدة وشئ بها النطقية فى متناولها السهل القريب التى تعتمد فيها على المألوف وحده . . ولو حومنا طويلا وبذلنا الجهود فى التعليل وأعملنا الفكر والخيال إن أردنا التحليق فى أفق للمعنى البعيد فبستان ما لم يكن ليدركه العقل إذا اقتصر على أقصه الحدود لحكم الأول على الأشياء لما ألم بنا العجب إذا تأدت لنا « يا ابنة الله » — وهى موضع الخلاف مع زميلتها الأخرى — أو عنى بانفحة من الله وبا شعاعا من عظمته وآية من قدرته وعملا من معجزاته واستخراج ذهن آلهي جبار ... ألسنا نعبر عن إنتاج الأديب والفنان بقولنا «هذا من بنات أفكاره ؟ » فلا نعنى سوى المبتكر المستخرج من مصنع الفكر ومستودع الذهن ومنبع الإلهام .. فما أقمن الشمس أن تكون من بنات الله المصنوعة المخلوقة من قدرته وإرادته . جل شأنه فى الخلق والإبداع والتكوين . . فى هذا المجال المرع الفسيح يسهل التعليل ويلين التبيين وينطلق المتنقل ... وإذا قلنا إن الله واحد لم يلد ولم يولد

كما عبر الأستاذ ثروت فالمعنى بعيد عما نحن بسبيله . ويكفى أن نفهم ما يعنيه الكاتب ويهدف إليه وإذ ذاك يبطل العجب . أما أن الشمس عين الله فى المعنى الآخر فلست أقول فى مجال التعليل واستنهاض المجاز إلا أنها عين الحقيقة . والحقيقة هى الله . وكذا يقولون ولك ما تشاء بعد ذلك من تمحيص وتحليل واستقصاء المعنى السامق الجليل .

(السويس) محمد عبد الرحمن

حضرة صاحب التعليقات :

قرأت فى العدد ٨٤٤ من مجلة الرسالة بحثاً للأستاذ عبد المنعم عبد العزيز المليجى بعنوان الفلسفة الصامتة ، وقد أثار انتباهى قوله : بعد أن أنهى كلامه عن بوذا وفلسفته التى استوحاها من تلك القصة التى مرت : إن الحياة أعظم الشرور وأن الخير يقضى بالتحرر منها ، كما أنه قال إن هذه القصة ترمز إلى فلسفة الهند الزاهرة فى الحياة المتعلقة بالروحانية : هى عين الفلسفة التى عبر عنها سليمان الحكيم فى الكتاب المقدس . وهنا أتساءل كيف قال الأستاذ المليجى إن فلسفة بوذا هى التى عبر عنها سليمان الحكيم . وكيف يكون هذا مادام بوذا يدعو إلى التخلص من هذه الحياة التى قال عنها إنها أعظم الشرور ، وهل يدعو إنسان عاقل إلى التخلص من شر إذا علم أنه سيعود إليه فيما بعد؟

ومن خلال دعوته تظهر اللهفة على التخلص من هذه الحياة كما أنها تظاهر من خلال كلماته أن الحياة أعظم الشرور . ومن هذه اللهفة يفهم المرء أن لا عودة إلى هذه الحياة إن خلص منها ، وبما أنه لا عودة إليها تنتهى فلسفته إلى الجمود .

وأن سليمان الحكيم يقول فى الكتاب المقدس : إن ما كان سوف يكون وما حدث سوف يحدث ، وليس تحت الشمس من جديد . هل هناك شئ نستطيع أن نقول عنه « أنظر هذا جديد ؟ كلا !

إذن . سليمان يقول إن الحياة تعيد دورها والتاريخ يعيد سيرته من ماض إلى حاضر ، ومن حاضر إلى ماض . فكل ما يراه الناس جديد يستمد حياته من الفناء كطبيعة الكون فى الفصول الأربعة تنتقل من فصل إلى فصل .

ما دام بوذا يقف بفلسفته عند الروحانية وهي الرتبة العليا لأبناء الدنيا ، وسليمان لا يقف عند حد ، بل الحياة مستمرة في دورانها تعيد الماضي إلى الحاضر وبالعكس ، فلا يمكن أن يقال إن فلسفة بوذا هي نفس الفلسفة التي عبر عنها سليمان الحكيم في الكتاب المقدس .

وإن كلمة (عين الفلسفة) هي التي جعلتني أكتب إلى صاحب التعقيبات مستفهما عن هذه النقطة آملا أن يغنيني عن السؤال عنها ثانيا ، وله الشكر سلفا .

اللاذقية — سوريا محمد بدر

إلى وزارة المعارف

في كتاب « المطالعة العربية » ص ٤ المقرر هذا العام على طلبة السنة الرابعة الابتدائية ترجمة للإمام الشافعي ، وقد جاء فيها ما نصه :
« وفي سنة خمس وتسعين ومائة من الهجرة سافر إلى بغداد أيام الرشيد فرحب به علماؤها » (ص ٣٥ مطبعة بولاق سنة ١٩٤٩)

ولقد أجمعت كتب التاريخ على أن الرشيد توفي سنة ثلاث وتسعين ومائة من الهجرة ، فكيف تكون سنة ١٩٥ هـ في أيام الرشيد ؟

هذا وقد ألف الكتاب لوزارة المعارف ليدرس في مدارسها رسميا — الأساتذة إبراهيم مصطفى بك ، ومحمد عطية الإبراشي ، وعبد المجيد الشافعي ، والدكتور عبد الوهاب عزام بك ، وحامد عبد القادر ، وراجعه الأساتذة الدكتور طه حسين بك ، والدكتور أحمد أمين بك ، ومحمد أحمد جاد المولى بك .

فهلا غيرت وزارة المعارف هذه العبارة مصححة إياها بما يتفق وحقائق التاريخ المجمع عليها ؟ أو تبين لنا المصدر التاريخي الذي اعتمد عليه أساتذتها المؤلفون والمراجعون فيما تضمنته العبارة المنقولة ؟

محمد خليفة التونسي

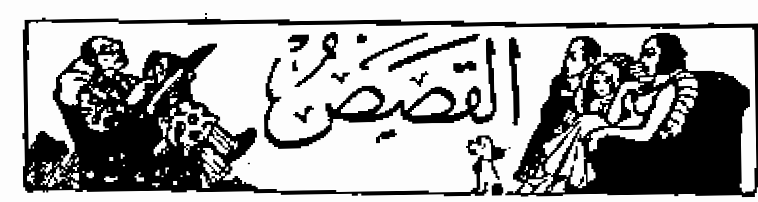
إلى الأستاذ أحمد شفيق حلمي :

قرأت ما كتبته في (الرسالة) العدد ٨٥٤ تحت عنوان (الوتد المذبوح) فأكبرت قوة الأسلوب ومتانة العبارة ورقة المعنى ودقة المبنى ولطافة الجوهر وحسن الحبكة ؛ وما إن بلغت قولك في الفصل الرابع عندما سقطت سهام على الملاءات البيضاء :

« هل تذبل الورود وهي تختال بين المروج » لم أستسغ هذا التعبير — لأن الموقف حينئذ يرين عليه الحزن والكدر ، ويخيم عليه الانزعاج والكآبة والدهش من هول ما حدث ؛ ففي هذا الموقف ، موقف المرء وهو يرى ميتا يحتضر أمامه — بل بين ذراعيه — في هذا الموقف يفزع الإنسان إلى ربه أن يسلط عليه نورا يبدد حيرته ، ويسكب في قلبه ضياء يوقظه من غمرته ! لا ليقول عبارة هي إلى الغزل أقرب من تعزية النفس وحيرتها !!

وكيف يكون « وحيد » مجنونا يحب عروسه وشريكته ، ثم يفقدها في غمضة عين بين ذراعيه ليلة العرس ؛ إنه يصرخ كالأطفال ، ويولول كالنائحات — إلا ليظهر مكنون قلبه — وتقبل الله .

الزقازيق سعيد عبد الراضي حجازي :



ليلة في الصرب

قصة للكاتب الأسباني بلاسكو أبانيز

ترجمة الأستاذ محمد فتحي عبد الوهاب

الساعة الحادية عشرة ليلا، تلك الساعة التي يغلق فيها مسرح باريس أبوابه. وقد أخليت المقاهي والمطاعم من روادها قبل ذلك بنصف ساعة.

وعلى أفريز الشارع، وقفنا زمرة حائرين. كانت جموع الناس تخرج من أماكن اللهو فتختفي في ظلمات الشارع، والمصابيح ترسل ضوءا خافتا سرعان ما يمتصه الظلام، والسماء الحالكة تجتذب إليها الأنظار بتلألؤ أضوائها، فيتطلع إليها الناس في نظرات من القلق. فقد كان ذلك الامتداد الفجائي للنور الكاشف أحيانا ما يكشف عن منطاد، تغمره الأشعة فيبدو كالسيجار المتوهج.

وشعرنا بالرغبة في الاسترسال في سهرتنا. ترى أين نذهب وقد أغلقت باريس المكتئبة كل أبوابها؟ — وحدثنا أحد الصربيين عن مطعم لفندق معين، مفتوح الأبواب طول الليل، يستقبل رواده من الضباط، فيدلفون إليه خلسة وكأنهم من أصحابه. وكان يتردد عليه سرا إخوان في السلاح من مختلف الأمم، قد قدموا إلى باريس لقضاء بضعة أيام فيها. وقصدناه، ودلفنا إلى قاعة استقباله في احتراس، فشعرنا بالفارق الهائل بين أنواره الباهرة وظلام الليل المدلهم. كانت القاعة أشبه ما تكون بمدخل منار كبير، وقد انعكست من مراياها عناقيد الثريات الكهربائية، فخيل إلينا أننا ارتددنا بأعمارنا عدة سنوات. النساء وزيناتهن، والشمبانيا، ونهدات القيثارة، وزنجي يرقص وقد ارتعشت أجزاء جسمه في حرارة — كان كل ذلك من مشاهد عهد ماقبل الحرب. بيد أنه لم يكن هناك من الرجال من يرتدي لباس السهرة.

وكان الجميع من فرنسيين وبلجيكيين وانجليز وروسيين وصربيين — مرتدين حللهم الرسمية الرثة، وقد علاها الغبار. وكان بعض الجنود الانجليز يعزفون على القيثارة، فيصفق لهم القوم في ابتسامات باردة كالرخام، وقد جلسوا مكان فرقة الغجر الموسيقية. وأومأت السيدات إلى جندي منهم يهمس باسم والده اللورد — صاحب الملايين الشهير، وهو ينشد قائلا «دعونا نبتهج أيها الأخوان، فغدا نموت».

كان كل هؤلاء الرجال الذين قربوا حياتهم لمذبح آلهة الحرب، يشربون العرق في جرعات كبيرة، ويضحكون، وينشدون، ويلقون بتحياتهم في حماس إلى أولئك الملاحين الناصريين الذين كانوا يقضون الليل على الشاطئ، ثم يعودون في صباح اليوم التالي لمجابهة العاصفة في شجاعة.

ولاح على الضابطين الصربيين المرافقين لنا، دلائل الرضا. فقد زج بهما وطنهما إلى باريس، مدينة الأحلام، تلك التي طالما ملأت أفكارهما أثناء إقامتهما للملة عسكر في بلدة ريفية. وكان كل منهما يعرف كيف يسرد قصته، موهبة عادية في بلد يكاد يكون كل من فيه شاعرا. فمنذ ماضي لا مرتين بالمقاطعة التركية بالصرب وقتئذ منذ حوالى قرن، عجب لنا للشعر من أهمية في تلك المقاطعة: مقاطعة الرعاة والمحاربين. وكانت الأفكار والذكريات تنظم شعرا في أرض قل أن تجد فيها من يقرأ ويكتب. فقد مد المؤرخون الوطنيون من أجل الألياذة الصربية، بما نظم من أناشيد جديدة.

وتذكر الضابطان وهما يحتسيان الشمبانيا، بؤس أيام تراجعهما منذ أشهر مضت: الكفاح ضد الجوع والبرد، والمعارك التي دارت على الجليد، واحد ضد عشرة، وفرار الناس والحيوان في ارتباك مفزع، والمدافع الرشاشة والبنادق تنطلق دون انقطاع على مؤخرة الطابور، والقرى المحترقة، والجرحى، والشريدون يئنون وسط اللهيب، والنساء الشوهات وقد حامت حولهن الغربان، وفرار الملك بطرس العجوز، الكسيح من مرض الروماتزم، دون أن يكون له معين سوى عصاه الخشبية، وقد أخذ هو ومن معه من حاشيته يتسلقون الجبال، مخني القامة، صامتا، يتحدى القدر وكأنه أحد ملوك غابر كسير.

وراقبت الضابطين الصربيين وهما يتحدثان . كان كلاهما فى غضارة الصبا ، قويا ، ممشوق القامة ، ذا أنف أقنى كأنه منقار النسر ، وشارب مدبب الطرف ، وقد انفلتت خصلات الشعر من تحت قبعتيهما الصغيرتين . وارتدى كلاهما حلة فى لون الخردل ، ولاح عليهما الهدوء الذى يضفى على الشجعان الدائبين على نفض الموت من فوق أكتافهم .

واسترسلا فى الحديث : تكلما عما حدث منذ شهور قلائل ، وكأنهما يتحدثان عن مغامرات ماركو كرايلوفتش « السيد » الصربى الذى تسلح بأفعى كأنها الحربة ، ليحارب بها شاربى الدماء بالغابات ، ومال بهما الحديث إلى ذكريات طفولتهما القاسية

ثم قام صديقنا الفرنسى ، واستأذن ورحل . وكان أحد الضابطين يقطع استماعه إلى الحديث بالتطلع إلى مائدة جانبية . كانت ترنو إليه عينان حالكتان ، تعلوهما قبعة من الريش الحريرى الأبيض ، ولاشك أنهما استرعتا ناظريه ، فقد هب واقفا كأنما انجذب بدافع لا يقاوم ، وسار صوب تلك المائدة ، وإن هى إلا لحظات حتى اختفى ، واختفت معه القبعة الحريرية .

وتركت وحيداً مع الضابط الآخر ، وكان أصغر من رفيقه سناً وأقل منه حديثاً . وارتشف رشفة من قدحه وهو يتطلع إلى الساعة الموضوعة على الصف . ثم ارتشف رشفة أخرى ؛ وأخيراً نظر إلىّ تلك النظرة التى تسبق دائما الإفضاء بسر خطير . وأدركت حاجته إلى الإدلاء إلى بحادث مؤلم يعذب ذاكرته ونظر إلى الساعة مرة أخرى : كانت الواحدة صباحا .

وعلى حين غرة ، أخذ يصيغ حديثه الصامت فى كلمات ، قال

— حدث ذلك فى هذا الوقت ، منذ أربعة أشهر …

وأخذ يتابع حديثه ، وأنا أتخيل معه الليل الحالك ، والجليد الذى يغمر الوادى ، والجبال الناصعة البياض للتلالة بأشجار الزان والصنوبر ، وقد هزت الريح أفنانها فتساقطت منها ذرات البرد الأبيض . ورأيت أطلال قرية ، ترابط فيها فرقة صربية ، آخذة فى التراجع صوب البحر الأدرياتيكى .

كان صديقى يقود مؤخرة هذا الحرس ، كتلة من الرجال ، علة أصبحت الآن قطيعاً من الرعاع . وراقهم أهل القرى فى ذهول من الألم والخوف ، فيتحركون بلا إرادة كالآلات ، ويتساقون إلى الأمام كالحيوانات ، وكانت النساء ، الداكنات ، المشوقات ، القويات ، يسرن فى صمت فاجع ، وينحنين على الأموات أثناء مرورهن فينزعن منهم بنادقهم وذخيرتهم .

وبدا الظلام متوهجا بضوء أحمر متلألئ من القنابل المتطايرة بين الأطلال . فاستجاب إليها أعماق الليل وأقبلت معه التوهجات القاتلة ، وأز فى الظلام الدامس الرصاص : حيوانات الليل الخفية كان كلما أتى الصباح ، يبدأ الهجوم ، وكانوا يجهلون عدد من هناك ، أولئك الذين يمطرونهم فى الظلام . أهم ألمان ؟ نمسويون ؟ بلغاريون ؟ أم أتراك ؟ . لقد فرض عليهم أن يجابهوا الكثيرين منهم .

واسترسل الصربى فى الحديث قال : « كان لا مناص لنا من التراجع ، مخلفين وراءنا أولئك الذين يسوقون تقهقرنا . وكان لزاما علينا أن نصل إلى الجبال قبل أن يتنفس الصبح »

وكان الطابور الطويل من النساء والأطفال والكهول وما اختلط بهم من قطيع الحيوانات قد ابتلعهم الليل ، ولم يبق فى القرية سوى الرجال القادرين ، يحاربون من مخابئهم بين الأطلال وقد أخذ جزء منهم فعلا فى التقهقر .

وبغتة ، انتابت الضابط ذكرى قاسية .

الجرحى ما الذى نفعله بهم ؟ كان أكثر من خمسين رجلا ممددين على القش فى حظيرة مزقت القنابل سقفها . رجال يعانون آلاما مبرحة ، رجال مذهولون ، يتململون فى نومهم ويئنون ، جنود أصيبوا بجراحهم منذ أيام مضت ، واستطاعوا أن يجروا أنفسهم جرا إلينا ، وجنود أصيبوا فى ذات الليلة يتبعهم سيل من الدم الجديد ، وقد ضمدت جراحهم بضمادات مستعملة ، ونساء أصبن بشظايا القنابل » ..

ودلف القائد إلى ذلك الملجأ الذى تفوح منه خبيث الروائح من الأجسام المتداعية ، والدم الجاف ، والملابس القذرة ، والأنفاس المتصاعدة ، وعندما تفوه بأول كلماته ، تحرك أولئك الذين لا تزال لديهم بقية من القوة ، فى تململ ومشقة تحت ضوء المصباح الوحيد المتعالى دخانه ، وصمتت الأنات ، صمتة الدهشة والرعب ، كما لو أن هؤلاء الرجال المحتضرين يخشون شيئا أكثر رهبة من الموت .

عن كتاب (كوكب السعود فى كوكبة الجنود لابن إسحاق ص ٧٧) إنه فى غزوة الطائف استخدم المسلمون الدبابات المصنوعة من جلود الأبقار التى لا تتأثر كثيراً بمقذوفات العدو، وتقدموا بها نحو السور لإحراق الأمكنة المجاورة له . غير أن أفراد قبيلة ثقيف المحصورين فى البلدة بدأوا يرمونها بقطع من الحديد المحماة بالنار — (حاشية ص ٢٥٠ ، ٢٥١ من المرجع السابق) .

ويبحث الأستاذ محمد حسين هيكل فى كتابه « حياة محمد » عن استخدام المسلمين الدبابات فى غزوة الطائف بشيء من التفصيل، فيقول :

إنه لم يكن من اليسير أن يقتحم المسلمون هذا الحصون المنيعة إلا أن يلجؤا إلى وسائل غير التى ألفوا حتى اليوم حين حاصروا قريظه وخيبر ... فما عسى أن تكون هذه الوسائل الجديدة التى يهاجمونها بها ؟ ...

وكان لبنى دوس (إحدى القبائل المقيمة بأسفل مكة) علم بالرماية بالمنجنيق ومهاجمة الحصون فى حماية الدبابات . وكان أحد رؤسائها الطفيل قد صحب محمداً منذ غزا خيبر ؛ وكان معه عند حصار الطائف ؛ فأوفده النبى إلى قومه يستنصرهم ؛ فجاء بطائفة منهم ومعهم أدواتهم ؛ فبلغوا الطائف بعد أربعة أيام من حصار المسلمين إياها . ورمى المسلمون الطائف بالمنجنيق وبعثوا إليها بالدبابات دخل تحتها نفر منهم ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه ، ولكن رجال الطائف كانوا من المهارة بحيث أكرهوا هؤلاء على أن يلوذوا بالفرار . فقد أحموا قطعاً من الحديد بالنار ، حتى إذا انصهرت ألقوها على الدبابات فخرقتها ، ففر جنود المسلمين من تحتها خيفة أن يحترقوا . (حسين هيكل ، حياة محمد ، ص ٤٢٠ ، ٤٢١) .

ويظهر أن الدبابات فى السابق وإن كانت لها قيمة كبرى فى الحروب لإخافة العدو وإثارة ضجيجهم ، فإنها لم تنل حظاً فى إحراز النصر حيث كانت عرضة للاحتراق ، فإن موادها المركبة من الجلود والأخشاب كانت سريعة التأثر بالنار . وقد حاول المهندسون المسلمون عبثاً إيجاد بعض الوسائل لتقيها من الأخطار المعهودة . فاستعملوا الجلود المبلولة بالماء والستائر بالخل ولكنهم لم يفلحوا .

ويحدثنا الأستاذ أحمد بدوى فى مقال له تحت عنوان « القوة الحربية فى مصر والشام » كتبه فى مجلة الرسالة عدد ٨٠٩ وتاريخ ١٤ — مارت — ٩٤٩ نقلا عن (النوادر لابن شداد ، ص ١٠٣) عن عظمة الدبابات التى استخدمها العدو فى حصار عكا ، بما يلى :

« صنع العدو ثلاثة أبراج من خشب وحديد وألبسها الجلود المسقاة بالخل بحيث لا تنفذ فيها النيران ؛ وكانت هذه الأبراج كأنها الجبال عالية على سور البلد ، ومركبة على عجل يسع الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفر ، ويتسع سطحها لأن ينصب عليه منجنيق ، وقد ملأ ذلك نفوس المسلمين خوفاً ورعباً ، ويئس المحاصرون فى المدينة ، ورأوها وقد تم عملها ولم يبق إلا جرها قرب السور . وأعمل صلاح الدين فكره فى إحراقها ووعدهم على ذلك بالأموال الطائلة والعطايا الجزيلة ، ولكن ضاقت حيلهم عن ذلك . وكان من جملة من حضر شاب نحاس دمشقى ذكر بين يديه إن له صناعة فى أحراقها وأنه إن مكن من الدخول إلى عكا وحصلت الأدوية التى يعرفها أحرقها ، فحصل له جميع ما طلبه ، ودخل إلى عكا وطبخ الأدوية مع النفط فى قدور نحاس حتى صار الجميع كأنه جمرة نار ، ثم ضرب واحداً بقدر فلم يكن إلا أن وقت فيه ، فاشتعل من ساعته ووقته ، وصار كالجبل العظيم من النار طالعة ذؤابته نحو السماء واستغاث المسلمون بالتهليل ، وملاهم الفرح حتى كادت عقولهم تذهب . وبينما الناس ينظرون ويتعجبون إذ رمى البرج الثانى بالقدر الثانية فما كان إلا أن وصلت إليه واشتعل كالذى قبله فاشتد ضجيج الفتين ، وما كان إلا ساعة حتى ضرب الثالث فالتهب . وغشى الناس من الفرح والسرور ما حرك ذوى الأحلام » .

وحسب ما نعلم كانت هذه المواد هى زيت النفط والكبريت والجير والقار فتتكون من خلطها النار اليونانية . وقد أشار إلى استعمال المسلمين هذه النار فى الحروب الصليبية الأستاذ كرستان لوبون فى كتابه (المدنية العربية ، ص ٥١٤ ، ٥١٥) .

وروى الأستاذ أحمد بدوى فى المقال السابق الذكر نقلا عن (خطط المقريزى ، ج ١ ص ٣٤٧) أن الفرنج هاجموا دمياط سنة ٦١٥ فى آخر أيام العادل وعملوا آلات ومرمات وأبراجا متحركة

مطبعة الرسالة